سفر الثعابين

رواية

حميد الربيعي



الكتاب: تل حرمل

تأليف: حميد الربيعي

الطبعة الأولى: ٢٠١٢

تصميم الغلاف: أمينة صلاح الدين



طباعة. نشر. توزيع

دمشق/ جوال: ٩٤٤٦٢٨٥٧٠- ٠٠٩٦٣

Email: akramaleshi@gmail.com

حميد الربيعي

سفر التعابين

رواية

١ـ الاحراس

من عالم آخر يقدم ، كان نائما واستيقظ ، احس برعشة تسري في الخاصرة ومن ثم تمتد الى الصدر. حاول وقتها النهوض فلم يقو. بقي ساكنا لحظات ، كانت الظلمة تسد المنافذ ، فتحة صغيرة دون السقف تبعث خيطا رفيعا.

السقف ، الذي هو حجارة محفورة بعدة مواضع وفيها بعض الرسومات والخطوط المتقطعة ، يعلو قامته قليلا. تنتشر حزمة الضوء فيه مشكلة ظلالا ، كأنها اشكال حيوانات خرافية. من كثافة الحزمة وبياضها عرف ان الصباح يشرق في الخارج. حزمة الضوء عند اول الفتحة صفراء ومن ثم تصبح بيضاء ، او هكذا تبدو. لا بد ان الشمس قد ارتفعت بعض الشيء عن طرف الجبل.

استكمل نهوضه ، الالم تحول لحظتها الى انات ، تخرج

من حنجرة جافة الحنجرة لا تشبه تفاحة آدم ، انها كالورم المتكور في منتصف المسافة منظرها يوحي بالجوع الذي استشعره بمعدته منذ أيام بعض الاحيان تصدر اصواتا مبهمة ، يستغربها في البداية لكنه يقطعها حينما يحاول تنظيف حنجرته بسعلة قوية ، تتشظأ معها بقع من البلغم المعجون بتبغ اسود.

اعتاد دائما تدخين الاوراق يقطفها ، عندما تكون عريضة ، من المزارع وفي الطرقات ، يفركها بين راحتيه ، يشم رائحتها تكون خضراء منداة بالبلل المتساقط من الاشجار ومن الضباب الذي يغلف المنطقة ويتكاثف عند القمم العالية ، بعد ذلك ينشرها تحت الشمس.

كيس التبغ ، حينما يكون خاليا ، يتحول لكارثة لن يترك الوريقات المسحوقة بيده طويلا للحرارة هذا ما يحصل معه غالبا ، اذ من الصعوبة التواصل في مكان واحد ولفترة طويلة ، أيام ثلاثة مثلا فينزاح مخلفا وراءه تلك الوريقات منشورة تحت الشمس ربما يستفاد منها شخص آخر ، او قد يمر ذات يوم من هنا فيقطفها بنفسه ، حيث تحولت ساعتها الى تبغ جاهز.

الكيس الاصفر ، الذي يخبئه في صدره متدليا بحبل

قصير من الرقبة ، شغله الشاغل ما دام لا يبرح الدخان. اهل بلدته يضعون الكيس تحت الحزام ، الذي هو اصلا قماش ملفوف طيات حول الوسط.

- انا دائم الجري ، موضعه بين الضلوع احسن.

يقتنع بهذا. لكن المشكلة الحقيقية ، التي تؤرقه باستمرار ، اين يضع ورق اللف؟ يحتار وتربكه الاختيارات. تحت ، في الصدر ، يتعرق ، كون صدره غابة شعر. يمتد فوق ملتقى الفخذين دائرة او مساحة غير منتظمة الشكل. حالما يصعد ، بعد ذلك ، الى البطن يصير خطا طوليا ، بيد عند الصدر يقفز بكل الاتجاهات ، فيبدو دغلا كثيفا.

عندما يمرر الاصابع فوقه تسري رعشة باردة مخدرة في جسمه. في كثير من الاحيان لا يلجأ لهذه العادة ، خاصة حين يكون في احد مشاويره ، والذي قد يدوم أياما ويقطع مسافات شاسعة.

مرات يصل الاطراف الجنوبية او الغربية من الاناضول ، ومرات يقطع الطريق الى نقطة "ابو الشامات" عند حدود الجزيرة ، او قد لا يسلك هذا الدرب ، فيتبع طريقا آخر ، صاعدا او نازلا ، الى كردستان ، ليتوقف في

سفوح "هندرين" و"ازمر".

تنمو طبقة لزجة فوق شعيرات صدره ، وخمة اثناء تنفسه وبالذات حينما تترافق مع رائحة الابط. يكره الشعر النابت هنالك والذي يثير القرف والضجر. يحاول دائما ، كلما سنحت الفرصة ووجد في طريقه نهرا او عينا جارية ، الاستحمام كي يزيل كل الروائح الكريهة ويعيد نشاطه وخفته.

يقفز ، كالغزال ، بين الصخور او تحت ، عندما يكون في الوادي ، وسط الاشجار التي تطلع قرب الجرف ، وتلك التي تكثر كلما توغل قي الغابات ، حيث تتشابك الاغصان مما يصعب الرؤية.

الكثير من سكان المنطقة يكسرون اذرع الاشجار ، هو يكره ان يفعل ذلك ، تربى وعاش في بيت يقع عند طرف غابة كبيرة ، كما انه لا يرغب بترك أثر ، قد يقتفيه من يضمر الشر.

الجندرمة التركية المنتشرون على طول الحدود الشمالية يخشى المرور امامهم في مرات كثيرة يراهم يركبون خيولا سوداء ، نادرا ما امتطوا الجياد البيضاء ، خوفا من ان يكتشفهم المتسللون ، عندئذ يصيرون فريسة سهلة للبنادق.

مطاردة واقتناص المهربين ، عبر الحدود مع الدول المجاورة الثلاث ، اللعبة اليومية التي تمارس كل حين.

حين يحاول ، داخلا مع اخرين الى مواقعهم او خارجا لاداء مهمة ، التسلل خلسة ينجو بسبب قصره.

مهماته قد تكون شاقة ، مثل نقل الجرحى والمصابين بامراض معدية ، وهذه نادرة لكنه صادفها مرة ، او سهلة ، كنقل اسلحة مخزونة في بلد آخر ، يستدل بيسر على رائحة البارود ، اذا جرت الامور بمسارها الطبيعي.

اذا داهمه طارىء فان ردة فعله تكون سريعة ، ولا بد من استعمال البندقية التي لم تفارق كتفه.

لا يتمنى حدوث هذه المواجهة ، وان حدثت فيجب التواري عن الانظار أياما ، قد تطول لاسبوع ، وعليه ان يظل يقظا ، ولطالما تعرض لمواقف ضاحكة اثناءها.

حسب ، ذات مرة ، الذي على مسافة قريبة بين الاشجار احد جنود الجندرمة والذي دخل في مواجهة ، يتحرك. انتهى الى هذا الجحر القابع في اسفل جبل وتخفى فيه يومين وليلة. البندقية بجانبه وتستند على صخرة ويراقب من خلال ثقب بين صخرتين.

الاشجار تمنع الرؤية تماما. حسبه هكذا جنديا ، حاول ان يلمح جزءا من جسمه كيما يعرف اين يصوب

رصاصته ، فهو يقدر ابعاد الجسد ، درس هذا في معهد الفنون آملا التخرج نحاتا ، لكنه منع ، اذ طرده العميد لعدم ارتداء السفاري الزيتوتي.

لم يحزن انذاك ، خاصة وان كل اصدقائه والناس ايضا رفضوا بمثل اصراره. رحل تاركا عاصمة كاكية بالوانها وكئيبة.

الذي برز له لم يك ذراعا ، فالدبيب قريبا من الارض يحدو ، ومن المستحيل ان الجندي الذي يطارده منذ أيام قصير لهذا الحد ، هو يعرف الجندرمة جيدا ، منذ اربع سنوات قادما اليهم او مغادرا يخالهم فارعي الطول ويشبههم بطول النخلة.

يرتضون منه التمر كرشوة وعندما يمضغونه يبدأ مكرهم ، يتصور ان ألتهامهم بسرعة وشراهة كافية لمروره بسلامة ، يثيرون فزعه حالما تطال ايديهم خرجه وكيس التبغ ، هم اعتادوا ابدا على عدم مس البندقية.

- يجب ان تظل على الكتف.

يتندرون وهو مرعوب من لعبهم التهكمي.

- لا تقربوها ، معبأة بالرصاص.

يتراءى "الجدح" في عينيه فيتركونه يولي دبره.

الظاهر ماثلة امامهم الحادثة الشهيرة التي طافت في الارجاء وحتى عبرت الحدود ، لقد رمى صياد عجوز اربعة جنود بعدما مدوا ايديهم الى بندقيته ، لقد تاكد من موتهم عندما استبدل الصدئة بواحدة جديدة ، وقتها اشيع انها لا تستحق السرقة لقدم طرازها وعتقها ، اسمه لم ينس في البلدان الثلاثة وما زالت الناس تطلقه على اسر المنطقة.

في نفس البقعة التي ينتظر فيها الجندي ان يخرج ذراعه والذي ظنه في البداية قصير القامة ، الا انه عدل عن فكرة رميه واستبدلها بالرائحة ، فقد انبعثت نفاذة وحادة مما شلت حركة الزناد ، لقد اعتاد هذه الروائح في جريه المستمر ، حدت به الرائحة القوية الى تبديل الجندي القصير بدب.

الدببة في هذه المناطق لها رائحة كريهة ، هو يكره كل انواع النتانة ، خاصة اذا ذكرته بما تحت ابطيه من عفونة. خرج من مخبئه دون البندقية ، الضحك انساه حذره منذ صار "دليلا" متجولا في القرى التي تنتشر بين القصبات والمناطق الحدودية.

هذه القرى ليست ببعيدة عن الطرقات التي يسلكها في تجواله المتواصل.

عندما تصادفه الخيالة يحيد الى الاختباء حتى الليل.

كل القرى تقبله ضيفا ، فهو الماهر بالتواري والمارق بخفة في التعرجات والجالب للمؤن والمقاتلين في ذرى سفوح الجبال ، والذي ينوي بهذه السفرة ان يهرب السلاح بين دولتين.

حينما خرج من الكهف ، وقتما صعب عليه النهوض بسبب الم الخاصرة الذي انتشر الى الصدر ، شاهد الشمس وقد ارتفعت قليلا عما توقعه.

يعرف ، في مثل هذا الوقت ، الطائرات تاتي عمودية ، قريبة تداني السفح وكأنها ستصدمه عدة مرات تحلق وتدور بحلقات لولبية ، يكون محورها كهف او صخرة ، يقودها طيارون ، تمرسوا كثيرا على هذه الغارات ، يرصدون ايما حركة تدب في الارض ، بنادقهم لا تخطىء الهدف.

ذات مرة غنم واحدة بعد ان اصاب حاملها وقد اقترب لحد الارتطام تلك اللحظة شعر انه قادر على جذبه من شعره بيد ان الاطلاقة وصلته قبلا. لا يدري أين اضاعها ، ظل اشهرا فخورا بحملها.

اليوم لم تات ، اذ مر الامس ولم تظهر في السماء.

قبل بدء رحلته قضى عدة سهرات في المدينة ، اصحابه يتوزعون في الطرقات ، يحملون اسلحة ، بعضها

مخبأ تحت الملابس او المعاطف الثقيلة والتي اغتنموها من الثكنات في اثناء القتال.

الشتاء في هذه الجبال يتطلب دفئا خاصا. غالبا ما يشاهد الثلج يغطي القمم ، القمم العالية ، طوال السنة.

يتجول كما يحلو له في الازقة والحارات العتيقة ، التي يعشقها منذ صباه ، مطمئنا ان المدينة امنة ، في النهار تكون تحت اعين الشرطة. كالعادة تسحبه قدماه الى دكان ، طالما تردد عليه في صغره ينظر الى الحداد ، كيف يشكل الاشياء الجميلة من مواد الخردة المنصهرة في الفرن. يقف مبهورا بنار الفرن الحمراء التي طالته اول مرة حالما اقترب.

كان الحداد يأخذ الصبي من يده ويجلسه على كرسي ، صنع من قطع زائدة ، دون ان يكلمه يظل ساعات صامتا ، يبصر مهارة اليدين اللتين تحيلان المواد التافهة الى اشكال شتى. رغم ذوق الحداد ونظافة اظافره الا ان الدكان ، الذي هو ايضا مأوى ، غير مرتب ، تتناثر اثاثه باهمال.

في اليوم الاول لوصوله المدينة زار الدكان ، تحدث مع صاحبه ، كان طويلا كالذي قاده من يده واجلسه كرسيا.

تأمل الدكان قليلا ثم قفل راجعا مع صديقين ، جاءا

لحمايته ، لكنه في اليوم الاخير بقي فترة اطول ، دون ان يقدم له كرسيا او ان يجلس هو.

الصديقان ، في طريق العودة ، اخبراه:

- نحتاج الى ذخيرة.
- عاجلا؟
- لا ، بعد اسبوع.

لم يتريث ، عندما دعاه الصديقان الى امسية اخرى ، بل حمل بندقيته ورحل.

لا احد يضاهيه في معرفة مسالك المنطقة ، خبرها جيدا من كثرة سفراته التي قد تمتد اسابيع ، يظل متوحشا في الوديان او الغابات ، واحيانا يتنقل من قمة الى اخرى دون ان تكل ساقاه من صعود الحافات المسننة.

اسبوع حتى يصل ، هنالك سيلتقي شخصا ، لا غبار عليه ، فهو ابن اخت الحداد وقد ضمنه بمقدار صونه للعشرة والصداقة ، سيقوده الى تجار السلاح. لن يكونوا ابعد من مسافة يوم مشيا من الحدود الشمالية. اذن عليه ان يستعد لمواجهة الجندرمة.

البغال امرها هين يعرف القرى وسيأخذها من الاخيرة ، فلطالما دخلها مرارا ليستريح يوما. يومان حتى يصلها.

- الباقي ، الله المعين.

وعد فور انتهاء المهمة بإجازة طويلة ، لم يحلم بها سابقا ، ولم يحلم بها الان ، الاجازة للعلاج وان رغب فللدراسة ، الخيار له .

اعتاد رسم الوجوه في الصخر والكهوف والثلج ، بيد ان المرض يداهمه ، خاصة ذاك الذي يبدا من الخاصرة ويتوزع على الصدر.

يخنقه السعال وان كان نائما ، تمتد اصابعه لتلف سيكارة. الاصدقاء يتندرون على عين الضبع. يقول لهم:

- اعتدت ان انام بعين واحدة.

قبل ان يدخل القرية احتار بالنقود ، الحداد رفض استلامها:

- هنالك ، عليك تقديمها.

حفر في الطرف الثاني للجدول الموصل الى القرى وخبأ المال ، ثم واصل طريقه الى بيت المختار ، يعده مقرا في سفراته ويبعد العيون عنه .

كان الوقت مساء لما قبلته الزوجة. ابنتها تخجل ، فلن تفعل هذا امام امها ، ذهبت تعد الطعام . قد يكون طازجا او بائتا ، المهم التهمه بشهية ، لم يذق الطعام منذ يومين ،

اصر ان يحتفظ بجوعه. يجبذ اكل البيت وهو الذي لم يسكن دارا منذ سنوات.

كان المختار قد خرج يبحث عن البغال ، حينما اقتحم الخيالة البيت ، كيف عرفوا بوجوده؟ لم تتوان بنت المختار لحظة كيما يستجمع ذاته ، سحبته الى غرفة فارغة إلا من سرير. يتناهى صوت شجار والدتها مع الرجال ، يبدو من اختلاط الاصوات انهم اربعة ، جاءها صوت الأم صارخة:

- ابنتي مع خطيبها.

قبل الصراخ تعرت ، ملابسها متناثرة في الغرفة وتشعر بثقل جسده فوقها ، العرق بدأ يختلط ، ثم امسكت ما انتصب لتوغله بين فخذيها ، طقطق شيء ، التفتت صوب الباب حينما اقتحمه الرجال. لكنها ظلت متواصلة معه ، تراجعوا مخلفين الباب مفتوحا ، الذي انتصب ما يزال رطبا وصلبا لحظة نهوضه ، سحبت البندقية من تحت جسدها ، امها عند الباب تقول:

- حسنا فعلت. لقد ذهبوا.

على السرير مسترخية تومئ تريد الفستان.

نام ليلته بجوار الأب ، في باحة الدار يتشظى من لهيبه

وغفلته وبداهدتها التي تجعله يبتسم مرة ومرات يتمنى احتضانها.

لم يغمض جفن له ، عدة هواجس تنتابه ، كالدوامة تطن في دماغه ، حرارة جسدها والرعشة التي كادت ان تنطلق. كأن لهيبا يحرقه فيتحسس ساقيه كل حين ، اكيد ثمة حروق ، أمن المعقول ان لا يكون قد اكتوى بنار فتاة تنتظره كل سفرة من دون ان تقبله ثم تختطف كالحلم لحظة التحامها به؟

لما خف انشداهه ، شعر بالامتنان لها وبالغضب على نفسه ، خاصة وان البغال التي جلبها الاب تقف في الباحة منتظرة.

لحظة خروجه للشمس ادرك ان ثمة وقتا ، لمقابلة التجار قاده قريب الحداد ، سكنا في مقهى شعبية ، تنزوي قليلا عن الشارع العام الذي تمرقه الشاحنات المحملة بالفواكه ، على جدرانها يقرأ اسماء بلدان عدة ، اليونان. رومانيا ، لكن سيارت اخرى تمر دون ان يتهجى الحروف.

تسلى بالمركبات فترة ولم يفطن من اين جاءوا ، تاملهم مليا ، كأنه صادف احدهم سابقا ، كانوا على عجالة فلم يتذكر بسرعة ، اتفقوا على موعد آخر.

- سلم واستلم.

لغة تحكيها الايادي.انسحب مسرعا ليتوارى في الكهف يوما كاملا.

السماء صافية ، هو في الخارج يطالع الافق ، كأنه مل الانتظار ، اتجه الى السوق ، يتجاوز المقهى ببضع خطوات ناحية مركز القصبة. يرمق الوجوه ، امرأة تحمل سلة خضار ، فتاة تغازل جارها ، النوافذ متقاربة وواطئة ، عجوز يجر حمارا وطفل يلعب بكرة قماش.

ثمة فرح ينتظره عند العودة ، قرر التسوق ، حاجات لن تثقل سفره ، الاصدقاء قرروا حفلة وداع ، لابد ان يصنع طقوسها ، شموع ملونة وبالونات بيضاء وورق زينة:

- سنتدبر الورق من المقر.

بدكان يمر ثم اخر ثم. اه نسي ان نقوده لا تصرف هنا. قفل راجعا ، الا ان يدا قبضت كتفه ، الخنجر تحت السروال. جاء الصوت:

- لم لم تشتر؟

ثم احتضنه ، يسحب شهيقا ملء صدره ، يتسوق بضاعته وابن اخت الحداد يدفع ، يدعوه الى وجبة غداء ، يجد مبررا بانجاز العمل بالسرعة القصوى فيكتفي الثاني

بهز راسه مع ابتسامة بلهاء.

يعود الى المقهى ، يتجاوزها دالفا الى زقاق ، ففسحة تتوسطها عين ماء ، وجمهرة نساء حولها. بدون اكتراث للزعيق يواصل سيره ، زقاق ، منعطف ، زقاق ، وسلم واستلم نفس الوجوه ولم يغب احد ، اذن تمت بخير وسلامة.

مع قريب الحداد يتشابك ، عائدين الى طريق الكهف. عند المغيب سيخلفه مبتدئا رحلة العودة ، يحس بالفرح ، ثلاثة ايام وسيصل ، عندها سيكون انجز مهمة ما قبل العلاج .

ستقابلاه نقطتا الحدودين ، عليه ان يجتازهما متواريا عن الانظار. ليست المرة الاولى ، اذ مر بهما من قبل. تتقابلان وبينهما مائة متر ، كأنها الصراط المستقيم ، الجندرمة من الشمال والخيالة من الجنوب. كيف فعلها جند طارق؟ لو كانوا هنا لولوا هربا.

تنتشر نقاط الموت في هذه البقعة ، كأنها متاهة ، اسلاك. الغام.عيون الرصد ، كلها هينة لكن البغال هي المشكلة الكبرى. ان نهق واحد جاءت المصيبة ، إنها صبورة ، خاصة اذا كان ثمة حمل فوق الظهور.

خبرها جيدا مع طول العشرة في رحلاته الطويلة ،

يعرف متى يكون البغل مطيعا. اذا دوت اطلاقة فلن يدانيه احد بالشراسة ، يتابع مصدر الصوت ولن يقف حتى يرفس بقائمتيه الخلفيتين القاتلتين. مفترى ان وضعت عصا تحت ذيله ، الخيل تهابه وتهرب مرعوبة.

كان قد اعد نفسه لكل الاحتمالات ، بدأ الموكب يتحرك ، بغلان في المقدمة ثم هو وبغلان خلفه. الصناديق مثبتة على الجنب ، البندقية بين يديه ، الشموع مربوطة بعنق بغل ، الشمس غابت وخيوط الظلام تنتشر بكثافة وظل الجبل يخفي سير الموكب.

بهدوء وروية وأناة وصبر واغنية "بويه اجعلني امك واريد ارباي منك" مرت نقطة الجندرمة ، اضحت وراءه ، الاخرى سيتجاوزها عما قليل.

سكون مطبق ، حوافر البغال لا تثير خوفه. الحصى ، الذي كان صخرا وتفتت ، يطقطق برنة خافتة ، كل شيء هادىء.

سقطت حجارة ، جفل البغل الاول ، توقف فارشا اذنيه. رصاصة ازت ، تلتها رصاصة ثانية ، كان مصدر الصوت من الجنوب. لحظات صمت ثقيلة ، نقطة الشمال تسلط كشافا ساطعا ، قبل ان تقترب حزمة الضوء تحركت البغال. الصخور عالية ، وراءها تحتمي.

- من علمها؟

اربع صخور خلفها اربعة بغال تنتصب وراء ظهره ، هو تكفيه صخيرة ما دام ضئيلا وقصيرا.

يرتفع صوت ، الجنوب يكلم الشمال. يلعلع الرصاص من جديد ، لم يعد ثمة مفر من ان يعيد ألعاب طفولته. يخرج البالونات ، يعبئها بهواءه المعلول ، يربطها بغصن ويحشر الطرف الاخر في مخرج البغل ، إلتاع من الالم فانطلق معربدا ، ليس ثمة خيل ولا سفح امامه. الالم صار حرقة ، يشم رائحة البارود ، بين الاشجار ينطلق صوب الخيالة ، لا يعيقه شيء ، صوت الرصاص يعلو ، تطير البالونات ، ترتفع بالافق ، نقطة الشمال تصوب نحوها ، قد تكون طائرة او حيوانا خرافيا يصعد الى السماء. الرصاص من كل صوب ينهمر ، طلقة طائشة تستقر في الكتف ، يتدفق الدم حارا ، البالونات تصعد ، البغل يطارد و"يعنفص" كيفما شاء ، كم صريعا وقع؟ البغل بين الاشجار يضيع.

نقطة الشمال تطفئ الاضواء. بعض الخفوت يحل بانتظار اجلاء حقيقة الحيوان الصاعد نحو السماء.

يربط صندوق البغل الضائع ، يربط نفسه تحت بطن

بغل ، يربط الجرح الذي في الكتف الايسر بكتلة الشمع ، البندقية جعلها تتقاطع بالعرض مع بغل.

يسير الموكب ، بغل وبغلان في المؤخرة ، هو في الوسط ، قاد الركب بغل. "هندرين" على بعد يومين.

٢ـ الموكب

قبل الوصول الى الباحة ، التي تطل زاويتها السفلى على المرقد ، تأتي المواكب ، طويلة وتسير ببطء ، قادمة من أنحاء قصية ، من القصبات والقرى المنتشرة قرب حدود المدن يقدمون رجال ملتحون فوق خيول بيضاء ، تمشي خببا ، لا تسمع صهيلها رغم الزحمة واكتظاظ الناس على الارصفة ، اصوات اخرى تعلو وتختلط ، تندمج بين المارة والمتجمهرين في الساحات انات حزينة وصوت بكاء ، عويلا على مقتل "الشهيد" قي ذكراه السنوية

الموكب بعد وصوله ينزاح فاسحا المجال لاخر سيقدم بعد حين ، يخرج الناس من السراديب ، يرمقون التشييع الذي يتم عادة مرة في العام

في صغره تحمله الوالدة على الاكتاف كيما تتيسر مراقبة الوجوه ومشاهد التمثيل ، يبصر الرايات ، خضراء عالية بطرفها جرس ، يرن مدويا مع الريح التي تهب عادة على المنطقة ، تحمل ذرات الرمل القادم من الجزيرة والذي يتجمع في الباحة فيغدو طبقات ، تثير رعب الاطفال ان تموجت او تطايرت.

كانت تستهويه مراقبة العباءات السوداء الخارجة من الحارات ، وعندما يقتربن يلاحظ بريق العيون السود والذراع البض لحمه.

اقرانه الصبيان يعدون هذا اليوم فرجة ، يسهرون حتى انبلاج الصبح ، حيث تتحول المواكب ، الى فسحة كبيرة عن طرف المدينة ، يكملون التشييع.

الموكب يسير ببطء ، كان قد اجتاز طرف الجبل الذي ظلله بعدما انطلق الرصاص ، الليل يتشرب المكان. ظلام حالك يرافقه صمت مطبق حتى من الريح. لن يعيق سيره دهماء الليل ، المنطقة في مثل هذا الوقت تبدو مهجورة ، ثمة حفيف اغصان بفعل الثلج المتساقط.

الجبال تمتد الى مسافات طويلة عبر خطين يتقاطعان عند ممر ضيق في الطرف الجنوبي ، الممر يشكل المعبر

الوحيد لهذا الوادي في القاع ، حيث الحجارة متناثرة ، تنمو نباتات برية كثيرة ، خضراء ما دام الندى يتقطر صباحا وقرص الشمس متواريا خلف القمم الشرقية ، مساء يغدو القمر قرصا فضيا يتوسط الوادي.

قبيل منتصف الليل على الموكب ان يجتاز الممر وبعدها تصير الارض منبسطة ، الا من كثبان حجرية ، تتراءى تلالا صغيرة وتتوزع دون انتظام على الاطراف.

تبدو البيوت ، بعيد التلال ، اطلالا لأناس هجروها منذ امد ، كان قد دخل اولها قبل الصعود الى الاطراف القصية من هذه الجبال التي يسير الموكب في عمق واديها.

القرى تصير ليلا زرائب بلون التراب ، من الصعب اضاءة قنديل ، فلقد اعتاد الاهالي ، منذ ان ساءت الاوضاع ، على الظلمة.

لا خوف يداهمه حالما يبلغ القرى ، قبل فترة حلقت طائرة لبضع لحظات ، لم يرها لكنه سمع الصوت اتيا من الافق ، كانت قريبة فاوقف البغل الموكب ، حلقت بدوائر لولبية ثم انسحبت صاعدة الى كبد السماء.

لم تك المواكب ، في مدينته ، صغيرة هكذا. ربما يكون طرفها الاخر خارج حدود البلدة التي يتوسطها المرقد.

غالبا يقدم اولا حملة الرايات ، رجال اشداء يحملون سيوفا ، بعضها من خشب ، يلي المهرجين رجل يحمل دفا كبيرا ، ينقره بغلظة مما يفزع الفرس التي يمتطيها. ثم تدخل الوفود زرافات وبهرج صاخب.

الاوراق تتساقط تحت اقدام البغال ، التي تتنظم بخط مستقيم في سيرها وبينها شاب. دم يبقع الثوب الذي تتهدل اطرافه ، ما دام مربوطا الى بطن بغل ، الحبل الذي يربطه بالاخر يتوتر مرات ، حينما يتعثر ، لكنه لا يتوقف. قائد المسيرة يشق طريقه رافعا راسه ، يتطلع الى صوت غريب او ثمة غصن يعيق ، يتوقف لما يشعر بتأخر الموكب.

وفق الحركات التي تليه يمشي ، كأنه يشعر بإيقاعها ، ان رافق سقوط حجارة يرفع أذنيه يسترق السمع.

سكون تام ، حتى الريح بين الاغصان حركة مرتجفة. مذ صفر للبالونات لم يتفوه ، الانين يتحول الى وجع ، يخنق صدره ، يرغب بلف سيكارة ، أنى لقائد الركب يعرف هذه؟ تحترق الرغبة فيشتعل غضب في عينيه ، يداه طليقتان لكن وسطه يعيق استدارته .

يحس ببطنه مفصدة ، يمد يدا الى الضلوع ولا يطول كيسه ، اهله يشدونه في الوسط ، لمَ خالفهم؟ ما احوجه

الى الدخان ، ينطلق صوت غريب ، ينظف الحنجرة بسعلة قوية ، يخاف فيمتنع ، يختنق من الحشرجة ، يمد رقبته ، الصوت الغريب ات لا محالة ،

يتوقف القائد ، مثله الاخران ، ضوء من بين الاغصان يدنو ، كان الوقت للتدخين ، لا برهة ليفك وثاقه ، البغل الاول يستدير ، البغلان يتحركان بعيدا عن الضوء ، هو يشهر البندقية ويضعها في دائرة الضوء ، امه كانت تخبره:

- كن حذرا ، لا تدع الزمن يسرقك.

من اين تأتي هذه الفطنة اماه؟ كانت تقعده على كتفها ، تطوف في ارجاء الصحن ، لا يتعبها كان ضئيلا ، تجره تابعة المواكب المنسحبة من المرقد الى فسحة طقوس المأتم

- شاهد ذلك ، ذاك الذي اهل بيته حوله ، كان يعرف موته ، يتسابق مع الزمن كيما يبقى ذكره.

اماه من اي سرداب خرجت؟ اين تقبعين الان؟ انا اختنق.

اناخ البغل ارضا ، يشكل ساترا يقيه ، يربط معه بحبل ليف ، كتلة واحدة بمواجهة الضوء ، البغل الاخر يقضم الحبل ، يقف بمحاذاة الاول ، بكى من محبة بغليه ، كأنهما

توأم لروحه ، الى الخلف قليلا تظللهما الاغصان.

- وصل البغل الرابع.

بنت المختار تقرب قنديلها ، تتفحص ذاك الذي اشعل لهبا ثم رحل ، باستحياء تطلق ضحكة:

- كيف ربطت نفسك؟

ما زال البغل منطرحا ، تستلقي في الجوار ، لم تحل وثاقه ، تقرب راسها ، البغل صار وسادتهما. هسيس اوراق الشجر يزيد ضحكها ألقا.

- اخذوا ابي ، ارادوا التأكد ، تركوه على ان يحضر خطيبي فيما بعد.

عبأ صدره بالدخان ، عندئذ ابتسم

- ابي قال سنتدبر احد الشباب ، انا رفضت ، لا احد يشبهك.

اصابعها تداعب جسده ، حين بدأت الحديث كانت عند الرأس. الان وصلت الى الدغل.

- ابي يصرخ ، من العبث معاندته ، امس جلب ثلاثة فتيان.

تبلع ريقها ، اللسان يبلل شفتين قرمزيتين ، تتمتم بصوت خافت:

- إستأجرت القصير ، قلت له ليومين فقط ، الا ان أباه جاء في اليوم التالي خاطبا ، رده المختار بخطبة عصماء ، مفادها خائن ان فكر باستغلال الفرصة.

أنهى السيكارة الثالثة ولم يعلق ، استغربت صمته ، لكنه لم يملأ رئتيه بعد بالدخان ، وكأنه يعوض ما فقد من دماء.

شعرت انه يسترد انفاسه بهدوء ، مررت اصابعها قليلا الى الاسفل. سيوصلها الخط النازل الى الذي دلع نارها وظلت متقدة ليلة ونهارا.

الجرح فتح فاه فأن بآهة متقطعة ، خرجت من عمق الصمت رنانة ومؤلمة ، مسدت الجرح بأنمل كأنه حرير ، خدر للملمس فاسترخى ، ابتسامته بعرض وجهه.

- لما رأى ابي بغلك الرابع أمرني بالبحث عنك ، تخفيت ساعات في الجدول ، كنت واثقة من مرورك هنا.

- لفي لي سيكارة.

تسحب كيس التبغ ، بين النهدين معلق:

- تعلمت منك.

بمحبة تقبله ، تستعدل جلستها ، اصابعها تدور ، ثم تمد لسانها ، وردي يبلل طرف ورقة التبغ ، نالها بشكر جم.

- تعال الليلة عندنا ، نعالج الجرح وتستريح

- لا

خرجت جافة ، حلقات الدخان تبدو بيضاء.

- أطفئي الفانوس

ينهق البغل ، تجفل مبتعد ، كأنها ترى الحيوان اول مرة.

- دعني افك الحبل.

- لا.. ، هكذا افضل.

يبعد البغل راسه ، يتقاطعان عند الوسط ، تضع يدها تحت الورك ، تحاول ان تطوله جيدا ، رعشات الملامسة تصير دفقا ، الجسد يرتجف ، يتعالى التأوه ، ربما صهيلا كان ، الريح تصفر والبغل يهتز والصراخ غمر المكان.

من سراديب مظلمة ياتيه الصوت "لا تدع الزمن يسرقك" ،

أمن المعقول ان احدا يدركه الموت دون تحسس دفء أمراة تنطرح بجانبه؟

كنا صبيانا ، نهرب الى الفسحات ، نرقب الفتيات ، تحت النوافذ او عند الابواب ، نخرج من ليل مظلم ، سراديب طويلة توصل الى المقبرة ، نتجمع حلقات ،

وحلقات ندور ، الكبار يغادرون الى باحات تعج بالدخان ، جمهرة كبيرة ، شيوخ وشباب يلتقون ، نتطلع اليهم عبر الضلفات ، تلك التي بمستوى الارض ، ضجيج وضباب وحلقات ذكر ، عما قليل ويبدأ الرقص.

صاحب الدف الذي رافق المواكب يصير درويشا ، ينقر اصابعه الغليظة ، وكلما اشتد الرقص زاد هياجه ، يشفط الدخان بفم ادرد ، كأنه بئر عميق ، نحن لا نتعب من المراقبة ، طوال اليوم كنا مشدودين الى الفسحة التي جاءتها المواكب.

ان اشتد الظلام ننسحب ، ندور في الازقة ، المدينة لا تنام الليلة ، الفتيات قريناتنا يتجمعن زمرا ، ونحن زمر ، نلتقي لنبدا المسيرة ، نطوف الازقة ، ننشد اغاني ، نعيد الواقعة ، كل صبي يقول مقطعا. هكذا تنتظم المسيرة.

المسافة بين الغابة وطرف الجبال ليست بعيدة ، قطعها قبل ان تلوح خيوط الشمس الاولى من وراء السلسلة ، المفروض التخفي طوال النهار ، بطول الاخدود الذي يوازي الجبال تتكاثف اشجار الفواكة ، جعله مرعى للبغال.

فك اربطته ، الجوع يقرص المعدة ، يجمع التوت الاحمر كومة كبيرة ، يتناول حبات لكن الظمأ شقق

الشفة ، ما زالت قطرات الندى تتساقط ، الاشجار باسقة والسماء تميل الى الارجواني .

حتى تبرز الاشعة البيضاء عليه ان يستلقي ، التوت فوق الجرح ، تنتابه رعشة شديدة ، يمزق طرف القميص ، ما زال نظيفا ، نوبات الالم تاتي متتالية ، مرات ترافق وجع الخاصرة.

يشعر بالانهاك ، لم يعد الفتى الذي يقفز بين الجداول برشاقة وليونة ، كأنه هرم ، حشرجة الصدر تقعده الارض ،

- هل يأتي الموت؟

ابدا لم يجبل على هكذا طرح ، همه ان تصل الشحنة ، الصناديق عند الارض تستقر ، ينظر بخيبة امل الى جرحه ، البغال ترتع مستريحة من حملها ، التعب يرتسم في العينين ذبولا. كالجرذ لا اريد ان اموت هنا ، ارض مسكونة بالرعب ، لا تطأها قدم ، منذ الازل هي مهجورة ، ما الذي حدا بي الى هنا؟ الدببة من رعونتها تجوب الاصقاع ، لمَ لم اذهب معها؟ حتما لكانت طيبت الجرح بودها. ،

- متى ابدا حياتي؟

في مدينته كما في الجبال هذه ، كان مشردا. ثمة امنيات

تقبع في الجوف ، يؤجلها عل الزمن القادم يتيح فرصة ، أمه تسأل:"متى تعود؟" وقد احست بانها الاخيرة التي تراه فيها ، لقد داهمها مريدو السفاري ليلتها ، بينما اخته تجاسرت واخبرتهم ان اخاها يصنع تمثالا قرب الجرف.

رغبة جامحة تملكته ، الدغل عند الصدر صار لزجا ، يختلط ببقعة الدم ، سينتظر حلول الظلام ، سيغطس في الجدول ، عل النشاط يعاوده يمارس بعضا من ألعاب الطفولة.

غياب النهار استطال ليتآكل صبره.

يتطلع الى السماء ، غيوم بيضاء تركض متسارعة ناحية الشرق ، لا بد ان تمطر بعد قليل. كل الجبال تصبح كهوفا.

قبل ان يخفض عينيه أبصر في السماء شبحا. يقفز فزعا ، يهش البغال ، يصعب المأوى ، ، راكضة بين الاشجار ، الصناديق تخبأ ، أهذا واقع ام خيال؟ رعب طلقات الجندرمة ما زال ماثلا في ذهنه ، لا بد انها تطارده ، لم تمض الا ليلة واحدة ، او قد تبحث عن حيوان خرافي في السماء.

لم يخطر بباله ان الطائرات ستلاحقه ، تدنو من السفح ، تأتي منقضة ، ثم تصعد شاقوليا ، كأن الطيار

يستعرض مهارته ، كنسر فارشا جناحيه يحلق ، ظلها في الارض يركض فوق الصخور. من الغابة تدنو ، تكاد ان تصدم اطراف الاشجار. ثم تعلو ثانية ، تدور حلقة واخرى تنقض.

عاصفة هوجاء تتطاير الاوراق ، ربما ابصروه ، ينصب البندقية ، ثلاثون طلقة جاهزة.

- "صلية" واحدة وانهي الامر.

حالما اقتربت ، صوب نحوها ، لكنه توانى ، في المرة القادمة ستكون اقرب ، الطائرة تهبط عموديا مما لم يفكر الا بملاحقتها ، تتكسر الاغصان ، تنكشف فسحة. من قال للمواكب ان تذهب الى الفسحة؟ "الشهيد" صرع عند الفرات.

البغال ترفع رؤوسها ، هل تخلق اجنحة؟ يتخيلها تطير. كالسهم بغل خلف الاخر. تصفق أرجلها ، تلاحق طائرة يضيق الخناق عليها فتقترب هابطة. تشق الرصاصات طريقها الى العلو ، يسحب شهيقا ثم زافرا غضبه.

كانت النيران تندلع فيها. مروحتها سكين باشطة تقطع الجذوع.

قليل من النشوة ثم تنحسر البسمة ، يبدأ العمل.

- ساكون عرضة للمطاردة بقية النهار.

فوق البغال الصناديق تحمل ، الجرح يفتح فاه في ددا ، قطرات الدم تنز حارة ، يهش البغال ، اثنان في المقدمة ، الثالث يركبه .

- دي ـ دي ـ دي ـ

تمشي ثم تسرع ، ستظل الغابة تظلله حتى اوائل المغيب ، كان يخاف في يء الطائرات ثانية.

ان ساط البغل سيطحر وعندئذ ينتحر ، عليه ان يحثه او ان يتوسله السرعة. تهمز قدماه بطن البغل ، يستجيب فيسرع البغلان.

حالما ينتهي من الغابة سيبقى في منأى من الخطر ، سيفضي الدرب الى الشلالات. لن يسلكوا هذا الطريق ، سيجرب الجري في الدروب المطروقة. حتما لا يصلون الى "دوكان" ، ساعتها يكون قد عبر الشلال وخلف البحيرة وراءه ، عندما يصل الى هنالك تلوح له "هندرين"

- هل سانجح؟

الفرحة تتحول الى همزة في السيقان ، ينطلق الحيوان اسرع ، كأنه يشاركه الفرح ،

ـ اسرع ـ اسرع ـ ثمة صفان ورايات خضراء تخفق ،

الصف الاخر راياته صفراء ، المهرجون يدقون طبولا عند الجرف ، تبرز راية خضراء تلاحقها مئات الرايات الصفراء ، الظمأ يحدو بالراية نحو النهر ، فتطلق النسوة الزغاريد. يصبغ المهرجون المياه بالاحمر. تجفل الفرس هاربة ، يأتيه الصوت. اسرع .. اسرع ..

السماء خلف غيوم سوداء تحجب ، ثم تزمجر ، البرق يلصف المكان بلون شذري ، تكفهر السماء فيتزل المطر. البغال تطرده بهز الرؤوس. ينقع القميص ويلتصق بالجسد ، يذيب اخر الشموع الى سائل برتقالي ، فرن الحداد يصهر الخردة ، الاشجار سقيفة تتدلى منها الاوراق. غصن نازل ينغرس في الخاصرة ، يصيح:

- آه. ايها الرب ، هي ساعات فقط.

يشعر ان الصوت لم يغادره ، هل يبكي وجعه؟ قطرات المطر تنزل فوق الوجنة ، الشمع تصلب على الجرح ،

البغال مسرعة وطرف الغابة بين فكي بغله ، أي سهم سيطعن الفارس قرب الجرف؟ كالمطر المتساقط تنهمر السهام ، عويل النسوة يرتفع ، بعض الشابات ينقرن دفوفا ، تصير اغاني المهرجين نواحا.

تفتح الغابة على شلال منحدر بصخب، الرذاذ المتطاير يصنع ضبابا ، كل الوادي يهدر مع المياه النازلة بجنون .

ثمة ممر بسعة المتر يحاذي طرف الشلال ، عبوره موت ونزهة ، مر البغل الاول بيسر ، الثاني عند نصف متر توقف ، هاله المنظر فتجمد ، عادة ما لا ينظر البغل الى الدومات ، حظه جعله يقف ، من يدخل بغلا بخرم إبرة؟ هذا ما اراد ياه، تحرك ، كأن المنظر لم يعجبه فواصل سيره، رفيقه في الطرف الاخر تشممه .

ماسكا بحبل الثالث يتقدم ، يتفتح امامه الشلال دوامة رعب ، كان الفارس يشق دربه الى الفرات ، يسقط صريعا قرب الجرف ، لم يبلل ريقه ، مياه الشلال عند القاع جداول ممتدة ، الموت عطشا، الموت في المياه، البغلان يتطلعان لثالث يجر جريحا، يفسحان الطريق لهما ، الشلال يواصل هديره،

٣ـ الثعابين

المدينة تقع في واد ، سلاسل جبلية تمتد شرقا حتى تحاذي الحدود ، عندها تنتشر الجداول. في الغرب تنشطر الجبال بالشلالات ، تبدو مثل حمل سيبتلعه اسد فاغر فاه ، ساكنة في الليل اِلا من بعض الطلقات ، تئز بين البيوت.

دخلها سابقا حاملا متاعه على الظهر ، غريب يخاف الشاحنات التي ستقله الى الجبال. لم يقرأ شيئا عنها.

هي الان كمعرفته بكف يده ، يبصر العروق واتجاهاتها ، الاصدقاء الذين يحرسون المنافذ كالتماثيل خلف الصخور يبدون ، عند منعطفات الشوارع يهاجمون ايما حركة تلوح ، يخبئون الاسلحة تحت المعاطف وتشهر بلمح البصر.

تبقى المدينة ساهرة ، كالعرس يتجمع سكانها ، يرقصون على الرصاص حين يلعلع ، يتقولون: سقط جحش ، لكنهم يصفونه: كجرذ يقرض الخشب.

المخافر تسكنها الصراصير ليلا ، بيد انها تنشط نهارا وكأن الحياة تدب فقط مع الشمس ، من يؤسر يجد نفسه حرا مساء ، تتوالى الحياة بانشطار مزدوج ، وايضا هزالي.

في الليل تبدو مدينة اخرى ، اكثر بهجة وأنسا ، فتيان في الحدائق يسرحون ، ومرات كثيرة يرقصون دون سابق موعد ، فقط هكذا يلتقون ليبدأ الرقص ، وكأن المدينة قلبت ليلها نهارا ، او ان يومهم يبدأ ليلا.

لم تك غريبة عليه ، دخلها مرارا في سفراته البطوطية ، عادة يصلها بعد المغيب ، حيث لا مخافر تعمل ، ما ان يطأها حتى يتلقفه الاصحاب ، كل ليلة سهرة في مكان.

في اول امسية له سأل ان كان في المدينة حداد ، استدل على دكانه بعد جهد وضياع في الازقة ، في ذلك اليوم الذي لم يقدم له كرسيا ولم يرحب به ، يقدم اليه اليوم بنفس المزاج. كان متعكرا من دخوله الاول للمدينة ، كما هو اليوم ، رغم الحاح الاصدقاء ان يبقى للسهر بمعيتهم.

لحقه صديق ، اراد ثنيه عن مواصلة مشواره منفرداً.

- نخاف عليك ، انت تعرف الاوضاع الامنية.

لم يكترث ، رأى في عينيه غضبا يستعر.

- لكننا اصدقاؤك.

ظل يلاحقه فترة ليست بالهينة ، يتحدث عن اشياء عدة يسمعه جيدا ، لكن لا يشارك ، كالابكم.

- انت أنظف وارفع مما قيل ، لا يهمك و...

- دعني.

قالها صادما. اراد قطع الحديث ولم يؤذه انه قالها خشنة لصديق ، انسحب تاركا صاحبه مصعوقا من لهجته الباترة ، بيد ان الاخر لا يكل ، جرى خلفه

- ستأتي لزيارتنا؟

لا يرد ، احس باللوعة ، قفل مستديرا بيد ان الصاحب من هرول اليه ، كان عناقا حارا. الكلمات ذابت في حرارة الاحضان ، مثل صديقين التقيا توا وافترقا.

كان لا بد ان يسيرا في اتجاهين متعاكسين ، حتم الوضع هكذا بعدما كانا لا يفترقان ، ان ولج المدينة فالثاني يعد الايام بشوق لملاقاة صديق العمر.

يطالع السماء ، ثمة غيوم تركض ، بيضاء تتكاثف قرب

الشرق ورمادية مشتتة بالاطراف ، الشمس لم تزل تسقط عمودية ، خلفها يبدو قرص معتم كأنه القمر ، لم يصدق ان يظهر وسط النهار ، كأنه ذاك الذي اكله الثعبان.

مطرقا يواصل دربه بنوع من الهمهمة ، لا يحادث نفسه ، لكنه يبرطم الشفة بنوع من الضيق مخافة ان تسقط الكلمات منه ، رفع راسه عل احد يراه يحادث دواخله.

رأيت القمر قرصا ، الثعابين تقرصه ، عما قريب ستأكله ، الى القاع اهبط متسولا ، اغتسل بغيوم تجرها عربات الخشب ، سائقوها يغطيهم التراب ، في القيعان انزع ادراني ، اصرخ: ايها القرص الذي تأكله الحيات تعال ، نتطهر من الضجيج ، انا اجرجر اسمالا وانت فوق تتوارى الحجب ، تعال فالصراخ علا ، لم يعد ثمة منقذ من الطنين ، كل شيء يبهت ويصير ضنكا ، كأنوال تدور والرعب قاب قوسين من القلب ، هياج عند الابواب ، نساء عند الساحات واطفال في الطرقات ، اما الشيوخ فينهضون من السراديب ،

في الممر الاول مقابر ملكية وفي الطرف الاخر جمهورية ، وفي الوسط تنام النساء من البرد والجوع ، الفتيات اللاتي إبيض لحم أذرعهن صرن يرقصن في

الفنادق بعدما أكلهن جرب الموتى ، واخريات يسايرن شهوة جنود مدججين بالحراب ، مخافة اتون النار الموقدة عند الحدود والجبال.

المأوى الذي كان يوما مرتعا لامال عريضة صار الان جمرا ، يحترق كل حين حتى نمل الانتظار ، نأوي كالجرذان الى الجحور ، نخاف الحر ونهرب من صقيع مصير يرسم كالسكران ،

الثكنات التي يختبىء فيها الجنود صارت بيوت دعارة ، يهرب الجنود من الحرب الى احضان المومسات ويبيعون البنادق الى المهربين ،

قل لي ياقمر: من اي حجر انت؟ تخرج الثعابين من تحت تراب القبور ، تصعد اليك بسلم لتقرص قرصك ، مع الدف الذي يحمله المهرجون يتعالى الصعود اليك ، والاطفال تحتك تردد:

"لو هلهلت يا مياسة
تأتي الفرسان الدواسة
لو هلهلت يوم الحنة
تأتينا اغصان الجنة"

التقط النغم فأطرق حديده على هوى "الهوسة" ، الاخر لم يظن قد وصل الى الفرن ، بانت عليه المفاجأة

فوقف مشدوها من النغمة التي يصدرها الطرق.

امتزج الاثنان معا بالنغم فرقصا ، الاول خرج من دكانه والاخر كان عند قارعة الطريق يقف ، دبكا سوية بصوت عال ، على ايقاع النغم ، الذي اجاده احد المارة صدفة.

مسك اليد الممدودة نحوه ، اجلسه كرسيا ، بعدما كال مديحا للاهزوجة ، كانت انفاس الحداد تعاود انتظامها ، التفت مسرعا:

- سمعت بما حصل معك.
- اريد ان اشتغل معك

كأن الحداد لم يسمعه.

- بأي ذنب تقدم الى المحاكمة؟

هو يتواصل ، كأنه الاخر لم يسمع:

- اصنع لك من الطرق اشكالا جميلة.
- أبعدما صددت الهجوم يحاكمونك؟
- انام الليل هنا.. في الفرن.
- هزلت والله.

يرفع بوتقة محمرة من النار ، في قعرها سائل اصفر رجراج ، بخاره يتطاير سريعا ، يمد المقبض اليه:

- افعل ما تشاء.

وقد جلس ثانية على الكرسي ، الذي نهض الاخر منه فرحا ، تمتم:

- سنسهر الليلة معا ، هنا في جهنم.

غادر الحداد الفرن مطمئنا ان ثمة من يرعاه الان.

امسك ورقة ، رسم دائرة في الاعلى ثم خطا قصيرا ، خطوطا اخرى بشتى الاتجاهات ، ملامح الوجه بانت ، تحت خوذة كان الجندي يبرز ، يقف غلى حافة شارع ممتد بعرض الورقة ويبدو بعيدا وعميقا في طرف واد ، يطالع جنبي الشارع لكنه خال الا من ثلة جنود مثله ينتظرون. على الورق تسمع اصوات البساطيل ترن على اسفلت الشارع. التذمر رسمه خطوطا قاسية تتصلب فوق الوجوه مع تكشيرة حادة وقاتلة.

الامتعة العسكرية فوق الظهور كأنها احمال صخر ،

سحب ورقة ثانية ليكمل التخطيط ، صفوف طويلة من اجناس شتى واعمار متباينة واطوال مختلفة تقف مرعوبة من امر صادر. الامر مثله بعصا غليظة ، يبرز طرفها كثعبان. ثمة ارقام كثيرة تظلل اسفل اللوحة هي بمثابة اسماء الجنود المرعوبين من اوامر النقل التي تتلى عليهم من العصا.

في تخطيط تال سرب طويل من مصفحات عسكرية يسير نحو عمق واد ، غير واضح منه الا بعض الظلال التي تثير الفزع ، وكأن في نهاية المسير حيتانا تبتلع الكائنات.

الوقت يبدو اول الصيف وذلك لأنه رسم الافق صحوا وبعضا من الزرع ينبت على حافتي الطريق ، هو ليس زرعا بقدر ما يبدو وكأنه اثلات متفرقة ومتباعدة على طول الرسم.

ثمة معارك تدور في الارجاء ، صف الجنود المنتظرين ، سابقا ، يدخلون بوابة معسكر ، يظهر على هيئة صفيح وسرب من الدبابات ، انه الوحدة التموينية لقاطع العمليات في غرب السليمانية ،

نصحه احد الجنود القدامى ان لا يرتدي "البيرية" ليلا كي لا يكون صيدا سهلا للمتمردين القناصة ، ولما سأل عن هؤلاء لم يحظ بجواب شاف.

عند وصوله اصيب بالرعب ، ذاك ان قائد المنطقة استدعاه ، خاصة اذا ما وضع في ذهنه ما يقال عن سطوة ولواطة هؤلاء ، القوادون يختارون اجمل الغلمان للعمل في غرف القادة.

القائد يقطن خيمة مغلق بابها دائما ، يبصره كالغول.

فوق الخمسين تجاوز عمره ، لكن خديه يتقطران دما وحيوية ، مرتجفا بالكاد تصطك ساقاه من البرد.

يامره ان يستريح ، ظن انه يامره بالجلوس ، كأن رشاشا يطلق رصاصه دون رحمة تلا عليه ما في ملفه ، اي منها تقوده الى التهلكة.

- فعلا صنعت تمثالا امام جرف الشط ، ورفضت اللباس السفاري و...

- انت وقح.

يضرب الطاولة امامه ، يفتح فوقها علبة نرد.

- تعال نلعب.

بوغت بالطلب ، لكنه شعر بالاسترخاء ،

- لا تخف ، انت ند لي.

بمكر الصبيان جعله يخسره الشوطين الاول والثاني ، لكنه في ما بعد كان يطحر كثور من خسارته المرة. رماه بوسادة ، هل حقا محشوة بقطن؟ كالصخرة ارتطمت بخاصرته ، جاءه مذ ذاك اليوم الالم الذي يصعد باتجاه الصدر ، تلك الليلة نام في السجن.

طرح التخطيطات جانبا ورفع البوتقة ، صب بعض سائلها في قوالب مصغرة عن هيئات بشرية ، تبدو

مجموعة القوالب وكأنها ملحمة لاقزام يتحركون من اول اللوحة الى نهايتها.

ملطخ بالزيوت وسخام النار فوق جدران متهدمة ومتهالكة بالاضافة الى الاضاءة السيئة تجعل الفرن اقرب الى كهف اشباح.

تمنى ان تمطر ، الفران لم يدله على مصدر المياه ، خارج الكهف يستنشق الهواء ويحلم بالمطر ، تذكر بالوناته الطائرة كحيوان خرافي في السماء ، ايقن ان دغل صدره لا يرتوي الا بالمطر ، هل سينزل؟ نظر الى الافق الذي تنخفض فيه الغيوم ،

- سيسقط. يسقط. سقط

مثل طفل لعب بالماء الساقط فوقه كالابر ، خلع ملابسه وعاريا امام الافق يعلو صراخه

- ملعون الكلب الذي يجرح القطيع.

تلك الصرخة ليست بالجديدة ، اذ طالما رددها في شوارع المدينة ، كانوا يبصرونه مشدوهين ، في مرة اطلقها عبر نافذة ، من تلك التي بمستوى الارض ، ابصر الدخان فقاربها مع مدينته ، دخلها خلسة ، كالتكية يرتفع صوت فيرنو الباقي الى الصمت.

يكمل اخر من حيث توقف السابق ، كل صوت يتلو مقطعا من ملحمة.

تبدا المراسيم بالنقر ، درويش على دف كبير يدق. الراقصون ينزلون تباعا. كلما ازدان النقر رقة ، ازداد هياج الرقص.

بدخوله تبدأ السيرة ، كالتعويذة تسري بين الحاضرين ، عشرة الحاضرون وبه يفتتحون كل امسية منقبة المدائح ، الذي على اليسار يبدا ثم تطوف ،

- كان يحمل المؤونة لرفاقه ، يا عيني.

الذي بعده يجلس يقف منشدا:

- صناديقه وبغاله اجتازت الشلال.

اكمل التالي:

- جرح الكتف انفتق ، اراد ان يستريح فاتخذ قمة جبل.

الثالث ينهض مباشرة:

- تحته يزحف رتل ، مجنزرة في المقدمة ومجنزرة في المؤخرة ، بينهما صف طويل.

- لم يصدق ، فرك عينيه عله يرى وهما.

ما زالت المنقبة تدور:

- حمل سلاحه على الجرح واطلقها قذيفة نحو اول الرتل والثانية الى النهاية فاعطب رتل الزيتوني.

- حاصرهم بين آليتين معطلتين ، بهدوء كان يصطادهم ، الواحد تلو الاخر.

اختلفت نبرة من نهض ، بصوت واهن يلقي مشهدا حزينا:

- عند رفاقه ، في مقر الانصار ألقى حمولته ، صناديق مكسرة. بوغتوا من خلوها.

الذي يليه بصوت جوهري اعلن:

- يقدم الى المحاكمة لخيانته الامانة و مخالفة التعليمات بجلب صناديق فارغة.

لكن سرعان ما تخاصم الاخران في الجلسة التي ضمته مع عشرة شبان ، كان جدالا حادا عن ماهية التهمة ، الاول يمثل القائد الميداني والثاني يمثل المسؤول المالي واتفقا ان صده للهجوم على مقر الانصار كان عظيما ، لكن الذخيرة مهمة ولا يغض الطرف عنها.

عادة ما ينسحب حين يشتد النقاش تاركا الاخرين في نقمة عما صار.

كلكل ظلام الليلة الثانية عليه في الفرن ، الذي يقع في

الطرف القصي للمدينة.

قد اعتاد بعض الشيء على الخلوة منذ ان ولاه الحداد العمل في مصهره ، كان منهمكا باشكاله الجدارية ، بعضها انجز والباقي تحت البوتقة تنصهر مادته ، الجندي والعصا الثعبان والرتل قد بردت كتلهم ، الطفل الذي اعاد تشكيله مرات لم يستقر بعد على هيئة معينة ولطالما ادخله الفرن كيما يذيبه.

مرات يجعله يجري في حارات ضيقة ، او فوق كتف امه ، لكنه بالتاكيد لن يحيله الى ذاك الشاب الذي صار وشب متمردا على واقعه.

هيا. لنسهر الليلة مع الكلاب الضالة. كل الارصفة خالية من المارة وانت وحدك تحرق نارك بنار الفرن. لا سكر الليلة كونك مخمورا من داخلك ، ليتنح الوجع ولتكمل الجدارية ، فالحداد آت لا محالة صباحا. اجعلها مفاجأة جميلة لنهاره.

من الدكان خرج يعبئ صدره بهواء الصباح الندي ، ثمة نسيم يهب من القمم الشرقية.

بعض الريح تصفر في اعلى البنايات ، يحدق في الافق ، يحرر ساقيه من الخدر الذي انتابهما منذ يومين وليلة ،

وجع الخاصرة نائم ، يفتح ازرار قميصه ، مدندنا باغنية ، كان قد حفظها من بنت المختار ، ترك ابواب الدكان مشرعة ، ضامنا ان الكلاب السائبة تحرسه ، صاحبه سيقدم بعد ساعة ، طفحت به رغبة برؤية الاصحاب ، لكنه كتمها بمقدار الحنق الذي يطفو فيه

قرر السير في ازقة المدينة ما دامت غافية في احضان الصبح ولما يستيقظ اهلها بعد ثمة نشاط يدب فيه رويدا ، اجتاز عدة حارات ومشى كثيرا ، لم يصادفه امرئ ما ، الشوارع خالية حتى ظن ان مناسبة تكتنف المدينة وهو لا يعلم

كان يجب ان يمر من الجادة الاخيرة اذا اراد الوصول الى اصدقائه او ان يقفل عائدا الى المصهر ، بيد ان ثمة من باغته عند المنعطف ولم يحسب شدة الاستدارة فياخذ حذره ، ملثم بمدية كأنها نصل يربض في تلك الزاوية الحادة

الملثم تنحنح مما يعني انه رابض هنا عن قصد والسكين غرقت في دماء غزيرة ، مثل صنبور ماء يتدفق ، في البدء رافقته صرخة وفي التالي انين لرجل يخر من علياه ويهوي مرتطما بالارض بقوة ثم ملتما على نفسه ويضع يديه فوق مكان غرس النصل ، الا انه لا يمنع

صنبور الدم من الدفقان مما دعاه ، بوعيه او من رعب اللحظة ، ان يصرخ بحدة ، ولو ان المدينة يقظة لكان قد سمعه جمهرة كبيرة من الناس الذين يرتادون الشارع ، مما يعني ان صرخته ضاعت هباء في رقدة النوم الذي يغلف المدينة ، بيد ان يحلم بان صرخته توقظ النائمين محال بسبب تحولها تاليا الى انين وتشنج في العضلات مما يعني ضياعه وحيدا في بركة الدم ، لكنه تخيل ان ما سيحدث يوقظ المدينة حتما ، خاصة اذا جرى كل شيء بسرعة ، ذلك ان دمه المتدفق يسيل انهارا ويغرق المدينة ، بالتاكيد ستصحو ولا بد.

هل احس من قبل بهذه اللوعة؟ حرقة تندلع من اسفل البطن ، الاحشاء كومة ملفوفة تبرز من الشق ، السكينة كانت هنالك اولا ، لقد تركها الملثم وهرب ، امسكها بكلتا يديه ، يمسك موته ، لحظات قليلة وسيتحول كل شيء الى العتمة ، عندها تغيب عنه الوجوه ، المدينة ، الجرف ، المرأة التي فيها اندلع اللهيب ، الفرن ، الاصدقاء .

ترنح ، لكنه استند الى حائط ، الاحشاء تتسربل خلفه ، يحملها بين راحتيه ، يبصر ان لا ثمة قمر فيها ، استغرب لم الوقت صباحا ، هل بهكذا سرعة تغيم

الحياة؟ لم يصدق ان الموت مدية كانت تربض وراء زاوية ويحمله ملثم ، كان يريد القلب ، لكن حركة الايدي صدته فنزل قليلا ، انكشفت امامه مساحات شاسعة من العمر.

ترى كم تطول هذه اللحظة؟ هل حقا سيغمض عينيه وبعدها العتمة الابدية؟ ما لون الموت؟ أياتي قاتما ام يمر خاطفا دون ان يدرك؟ سنوات العمر الممتد من المواكب التي تغادر الفسحة الى الجبال الشاهقة والضباب؟

- اماه.

رعشات تمرق باطرافه ، يرتعش فيهوي ممدا فوق الرصيف ، الدم يعبر العلو ويسيل الى الشارع ، يغسل الطرقات من الاتربة ، يتدفق سريعا وهاربا.

ما زالت السماء تركض والبيوت تهرب وعيناه تزوغان ، تبدو الموجودات ظلالا.

- لا يمكن ..

كيف يحدث هذا؟ كان يحيل الاشياء الى نفائس ، كيف تهرب منه الان؟ الحديد الخردة يصير خيولا ، الصفيح الى منحدرات للعب الاولاد يحيلها. هل يبدو هذا القصير ، الذي طرق كل البوابات وعبر الحدود من اقصى

الجبال عتيا الى المدن التي ينظفها اصدقاؤه ، كتلة هامدة في رصيف مهمل؟

- انقدوا هذا القتيل.

يختنق صوته ، تشرع الشرفات ، تفتح النوافذ ، رؤوس كثيرة تطل ، ترى شابا كالقنفذ ملتما على نفسه ويده راية ترفرف. صوت يتلوه صوت حتى علت الصحيات. يقفز شابان يسندان ذلك الذي عند الرصيف يزحف وامعاؤه بين يديه ، يريدان انهاضه ، يصرخ:

- لا تمسوا الاحشاء ، مقدس الدم ، لا تنسوا الرايات في الفسحة. الفرن. الملحمة.

- احملاه

صوت آسر ، امتلأ الشارع بالبنادق ، الى اخر بيت يحمل بين اربعة اذرع بتأن.

صوت آمر يعلو زعيقة:

- اريد القاتل حيا ، انبشوا الارض عنه ، اكسروا المخافر ، اريده حيا ينحني ، يطبع قبلة على جبين الجريح الذي غام في وجعه.

- سنعالجك ، كن مطمئنا.

ما زالت السماء تدور في عينيه .. لا تدعوا الثعابين

تاكل القرص.. كنا صبيانا.. نحمل الدفوف.. نخرج الحيات..
نشق جوفها.. نخرج قرص القمر..
لا أحد ينصت له اذ علا الضجيج..

٤ـ أزمر

يتحركون باتجاه الغرب ، قريبا يبدو الجبل ، كأنه يلامس طرف المدينة ، يبدأ سفحه من اخر البيوت ثم يتفصد الى رواب ، تعلو الواحدة التي تسبقها ، يلتف بشكل حلزوني ،

الطريق الاسمنتي يصعد تدريجيا ، كدوائر تحيط بالسهل اولا الا انها ترتفع الى القمة. السفح بعدما يستدير الى الجانب الثاني ، الذي يطل على سهول واسعة من التبغ ، ينعطف بشدة مكونا بجهة الشمال فسحة تبدو ضيقة الا انها تشكل مصيفا ، يرتاده اهالي المدينة في اثناء الرحلات.

ياتون زمرا ، شبان بمختلف السحنات ، يرتدون معاطف ثقيلة ، وفتيات كن قد هربن من الجامعات من اجل

الفرح ، يكونون حلقات للرقص ، تستمر حتى مغيب الشمس.

الفسحة عند الجرف شديدة الانحدار. يصير السقوط ، وان كان حجرا ، موتا محققا ، تنتهي بواد عميق ، تتكاثف الاشجار فيه ، لن ترى طينته ، فقط اطراف الاغصان تبان بساطا اخضر ، يهتز مع الريح الثلجية القادمة عادة من الشمال ، حيث الجبال الشاهقة.

عندما وصلوا الى الفسحة بانت المدينة ، كأنها كومة من بيوت ، صغيرة. تختنق بالضباب الذي يغلف الجو صباحا ، ثمة سحب بيضاء تتحرك مبتعدة.

هل فكر مرة ان يمتطيها ما دام يرغب بقمر سيقتله الضجيج في الاعالي؟

من الصعب ايجاد موطئ قدم في الفسحة ، الاهالي يفترشون الارض في مواسم الاعياد واحتفالات الربيع ، ينحدرون مع التعرجات التي تشكل سفوح "ازمر". مرة سأل عن معنى الكلمة ، لكنه لا يتذكر الان.

اجتازوا المنعطف الرابع الذي يؤدي الى الفسحة فباغتهم جمهور الحاضرين ، كانوا ينوون البقاء بعض الوقت لتبديل ضمادات الجريح الذي ينقلونه من المدينة.

لا خوف من ان يراه الناس ، فبمجرد الوصول تهافت

الجمهور. خبر اغتياله انتشر في نفس الليلة التي طعنه الملثم ، رفاقه الانصار اخفوه حينما رحلوا صباحا ، الاهالي يعرفون ذلك ، هو الان بينهم ، يميزون حركة العيون الراصدة ولا يخشون ، اذ طردوهم قبل ساعة من وصول الموكب ، من اليسر افتعال حادث ، لا يتعدى نطاق الخصام الشخصي ، فتشهر البنادق ويفر مرتدو السفاري.

تعالت الاصوات موسعة الدرب للموكب القادم ، اربعة رجال وثلاثة خيول بيضاء ، الحصان الرابع زلت قدمه عند المنحدر الاول فسقط في الوادي. امرهم الجريح ان لا يطلقوا النار مخافة قدوم الشرطة.

اعترضت فتاة درب المسير:

- لن يبرح.

فتحت كيسا ، ضمادات ومحاليل تعقيم واشياء اخرى انفرطت فوق منديلها ، لاحت ابتسامة على شفتيه ، فترجل اصحابه. احدهم قاد الخيل لزاوية بعيدة ، الاخرون توزعوا في اطراف الفسحة ، مهمتهم حماية الجريح حتى لو اشتعل الجبل نارا.

الفتاة انتزعت الضماد القديم ، بانت الخيوط المتعاقبة على جانبي الشق الطولي ، ليس ثمة دم ينزف لكن فتحة

الجرح لم تندمل بعد ، امرأة بجانبها تدلها لما تفعل. الفتاة باستمرار ترفع عينين خضراوين ، مجرد ابتسامة ثم تواصل عملها.

على مسافة الراقصون يشكلون حلقات ، يبدأون الدبكة على نقرات الدف ، بجانب كل فتاة شاب يرقص ، الدوائر تتسع ، الحصى الناعم يتطاير تحت الاقدام ،

المرافقون للجريح يطلبون التفرق ما ان هدر صوت محركات قادمة ، ارباك اصاب الفتيان.

الهدير يقترب مكونا من ثلاث سيارات. يبصرونه جيدا ، كالدب منتفخ الاوداج يترجل ، يمتشط مسدسا بالحزام ، يطالع الوجوه ثم يتوقف الهدير ، محافظ المنطقة وحوله شلة ممن يلبس الزيتوني يتخذون مائدة في اقصى الفسحة مجلسا لهم.

ليس من شيء يثير الريبة ، فقد اعتادوا مجيئه كل حين ، ينشر ابتسامة باهتة الى الوجوه التي يمر بها ، كأنها تعويض عن قلة كلامه.

دخل مع الراقصين في الحلبة ، فتاة نهرته ما ان داس على قدمها:

- منذ سنوات ، لم تتعلم.

ارتج المصيف لطلقة اسقطت الفتاة مضرجة بالدماء ، لحظات فلعلع الرصاص ، من كل مكان البنادق تشرع. كان الجريح ورفاقه ينحدرون عبر السفح الثاني.

هدير المحركات يبتعد باتجاه السفح المقابل.

هو ، بعدما رأى الدب ، تذكر رائحة ابطيه فقرف. شعر بالتجشؤ يلوي معدته ، امسك ذقنه بين راحتيه فتقافز الاصدقاء يحيطون به.

- لا شيء. لا شيء

ثم يعتدل فوق الجواد:

- دعونا نواصل الرحلة.

الطبيب اوصى بالراحة التامة ولمدة ليست قصيرة ، كان الطبيب يلملم خيوطه على ضوء فانوس ، احدهم اسند ظهره ، الاخر اطلق زغرودة فرحا ، اخته فعلتها لما انتصب التمثال قبالة الجرف ، كان الصبح يشرق عبر نافذة ، تستقر اعلى الغرفة ، من تلك التي بمستوى الارض تكون.

في اليوم التالي حملوا له خبرا:

- يجب ان تنقل الى مكان اخر.

مر بباله ذلك الكوخ الذي يستوقفه كلما مر بتلك

الارجاء ، قليلا الى الخلف من "ازمر" يقبع في ظل واد تملأه الاحراش ويتدثر الثلج.

تخيله ، اول مرة ، مغارة في اسفل جبل ، لكنه اقتنع به بيتا ، يختفي عن الانظار بكثافة الاشجار التي تتدلى عليه.

شق صغير بين صخرتين ثم ينفتح على باحة كبيرة. يرتصف ، من الداخل ، بخشب البلوط ، يلمع لضوء القنديل المعلق بالسقف ، تنفصل الباحة بجذوع اشجار. في المقدمة غرفة بموقد ، الغرفة الخلفية يتوسطها سرير من الابنوس المدهون ، وطاولة قليلا عن الارض ترتفع.

القنديل ، لما يضاء ، يتحول الى بؤرة ، ترسل اشعتها خيوطا طويلة للجدران.

الظلمة والضوء يمتزجان بشكل غريب ، يشكلان لونا ارجوانيا خافتا ، كالذي يشاهده من خلف روابي الجبل ، اعمدة النار من الموقد تضفي جوا دافئا.

- جلبنا لك دثارا ثقيلا اتقاء للبرد.

كانت الامتعة تتكوم عند البوابة ، الشق الذي يسرب خطا طوليا من ضوء الشمس ، ينبري احدهم لترتيب الاغطية ، ادواة الحلاقة الى العين الجارية يحملها ، والتي

طرفها يمر بالكهف ، ثمة قطعة خشبية تقطع مسارها ، رص فيها الاغذية المعلبة.

- سنمر عليك يوميا.

الاخر يخلع حذاءه ، يتأفف من البرد الصال في اصابعه ، قرب الموقد ينشر الجوراب الثقيل

- لم اشاهده من الداخل.

اراد ان يكسر الرهبة ، احد الشبان انبرى:

- بيت جميل ، لطالما حلمت به.

كان البيت مقرا خلفيا للمسؤول الميداني ، يرتاده في اثناء الازمات ، لا احد يعرف شيئا عنه ،

- اوصى ان تشفى به ، طلب ان نعتذر لك ، اقل ما يمكن تقديمه عرفانا بشهامتك.

سلسلة طويلة من الوصايا ، كأن الصديق آلة تسجيل يلقيها. رفع يده فتوقف الاخر ، بتقاطيع باردة سأل:

- هل اتخذوا قرارا بشأني؟

حاول الثلاثة التملص ، بغفلة تسللوا عبر الشق ، استدار الاخير لما وصل المخرج:

- فُصلت.

الضوء المتسرب من الشق يختفي ثم يعود خافتا بعدما ألقوا تحية الوداع.

على محتويات الكهف تطوف عيناه ، خشب الارضية يبعث صريرا ، نار الموقد ترسل شررها متطايرا ، راعه البرد فالتم على نفسه. يلف ذراعيه حول الركبتين وينام الراس فوق رقبة مهدلة ، ألم الخاصرة يوجعه مع هبوب العواصف.

امره الطبيب بملازمة الفراش ، ينطرح على ظهره ، الخدر يسري في المفاصل. بالضبط كذاك الذي شعر به عندما حوله ضابط التموين الى راع ، زريبة الدببة تقع في الطرف القصي للثكنة ، في اليوم الاول بعث له بكتيب ، كيف تعتني بالدب في خمسة ايام تصفحه باهمال ، لكن هاله سعة فم الدب مما اجفله وجعله يكره الوقت الذي بالنرد غلب أمره ، الذي يشبه الدب بكرشه.

تلك الليلة قضاها منتظرا امام الباب بعدما ملأ الدنيا زعيقا ، طلب الحارس ان يلتزم الهدوء والا قدمه مذنبا في الصباح. ثم سأله بغتة:

- من اي مدينة انت؟

سريعا خر ساقطا ، يتلوى من الالم ، حمله الى خيمة

الجنود ، سقاه رجل عجوز شايا لذيذا ، شعر بالالفة ، بيد في الصباح زعق الآمر يطلبه:

- جلبت دبا صغيرا ، إرعه جيدا.

ارتعشت اطرافه ، كالموجة اندفع الى الوسادة يطلبها ، ليصنع له خاصرة موجعة كما هو ، الآمر يحتمي بشرشف المنام الابيض الشفاف.

- مجنون.

لن يحميه كل الحراس ، سيشق بجنبه فوهة تنضح صديدا اسود ، يتبادلان الوسائد.

- اهدأ ، قليلا ، نتفاهم.

يتقدم حذرا ، الاخر ينضد كومة الوسائد بجانبه ، يقرب طاولة:

- ان غلبتك لن ترعى...

- وان ربحت؟

الجنود في الساحة يصطفون وهما ما زالا يلعبان النرد ، جاء الفطور فأكل غالبا ، نودي مرات عليه ، لكنه اعطى الاذن الطرشاء بكل الاحوال ، كان همه ان يثأر من هذا الصعلوك الذي يدعي النحت مهنته ،

- الشوط الاخير مقابل ان اغتسل من روث الدببة.

لكنه نكص عن الوعد ، عندما امره بالاستعداد للذهاب برحلة صيد.

النهر ضيق ويجري بانسيابية هادئة بمحاذاة الحقول ، لا يشكل اروائا للاراضي بقدر ما يبدو وكأنه للفرجة ، لا يتعدى في عرضه غير خمسة امتار وتظهر حصى قيعانه لماعة ونظيفة ،

كان يكفيه لان يزيل روائح ابطيه ودغل صدره ، ما ان رآه حتى نط مسرعا بملابسه ، كانت فرصة لا تعوض للانتعاش واللعب الطفولي ، بيد ان القائد العسكري افسد فرحته ما ان امره بالخروج ، في البداية فرح بضحك الفتى وهو يكتشف مسراته ، لكنه اغتاظ بعد حين دون سبب واضح الا الحنق في داخله.

وجد بجانب القائد بيدرا من القنابل اليدوية ، وثلة من الجنود متهيئون للوثوب ، ظن ان ثمة تدريبا عسكريا سيجرى هنالك ، لكنه طعن بمقتل عندما امره ان يرمي القنابل لاصطياد السمك ، رعب من المفاجاة ومن الطريقة التي جعلت فرائصه ترتجف ، اذ لم يسمع في حياته بهكذا طريقة للصيد.

كان قرص بلون الحليب يرتسم فوق صفحة المياه ، طلب التأني قليلا.

- الثعابين نائمة

القائد يبرطم الشفة ، من اليد يقوده مسافة بعيدة عن الجرف ، اخبره عن البساتين والحيات وكنا صغارا ، نخرج..

- ما هذه الثرثرة؟ اي ثعابين..؟

القرص انسحب ظله من المياه ، القائد يهز يده مستهزئا ، يرتفع دوي انفجارات هائلة ، نافورة من الماء تتدفق الى العلو وتحتها ارض مقعرة وخالية من المياه ، انه يشهد كونا جديدا يتشكل بفعل الخراب.

- القنابل كالثعابين.

يجلس منتحبا ، كانت الظلمة شديدة ، لانزياح الماء وصعود الدفق عاليا مثار شك عظيم في ذاته فاتخذ القرار. الذي لا رجعة فيه ،

اتته الفرصة عندما سرح باجازته الدورية ، في طريق العودة من الزاب الى العاصمة انحرف في ربعه الاول وترجل بالقرب من "هندرين".

شعر بالراحة واعتقد ان مشوار حياته قد تغير بعيدا عن الزيتوني ولبس السفاري الذي ظل يطارده من الجامعة ومدينته الى العاصمة والجندية التي انتهت بمذبحة الاسماك.

يتناهى لسمعه ان ثورة قد نشبت في هذه البقاع ، لهذا اختار "هندرين" محطة للنزول ، بعض من اصدقائه حدثوه عن الامر ، واعد اكثر من مرة بالالتحاق وها هو يفعلها.

علب الاغذية فارغة ، من بعضها صنع لوحات يعلقها بالحيطان ، البعض الاخر ضجر منه فرماه جانبا ثم بعد حين يرميها في نار الموقد ، وعندما تسخن يقص منها فراشات وعصافير ، يتركها في الليل قرب العين الجارية ظانا انها ستطير عند الصباح ،

مرت أيام دون ان يظهر الاصدقاء ، يشعر بالمرارة لكنه يقتل سأمه وغضبه بالخروج الى الغابة ،

يخرج بحجة البحث عن التوت الاحمر ، الهواء يهب منعشا ، يشعر بنشاط في اعضائه ، يقفز ، يهرول ، يرجع ماشيا بهدوء ، مرات يغني ومرات يصفر كالريح ، لن يبالي ان كانت شياطين الارض جميعا تنصت ،

- من يعيد تلك السنوات؟

بحسرة يتأوه ، يعد على اصابعه ، واحد. اثنان. عشرة. هيا. يعلو النغم ، عند منعطفات الجسد يخرج بزخ شجي ،

- ساخرج قلبي واغسله من الادران ، ساغدو صبيا.

ما زال يرقص ، بين الاغصان يشع ضوء القمر ، تتجمع تحت نعليه ثعابين ، ترفع رؤوسها ، الفحيح يخدش الصمت ،

- لن تفسدوا السهرة.

يكسر غصنا ، ينقر على جذع شجرة سرو ، كالدف يدوي الصوت ، يطارد الثعابين ، تتوارى في الاغصان ، يركض خلف واحد ليضربه ، ينشطر ذيله عنه ، من فوق الجذوع يتطلعون لشاب يطارد ثعبانا بذيل مقصوص ،

بين جذعين ضخمين يربض دب ، ابيض يتماوج مع ألوان الشجر ، قبالته منتصبا يتشمم ، تضطرب خطواته متراجعا من حجمه الذي يسد الافق ،

كانت الافعى محصورة بينهما ، تتكور حلقات فوق الذيل المقطوع ، ثم تقفز ، ناطة في جوف الدب ، الذي يفتح فاه مندهشا من القفزة ، بالتاكيد لم يحسب دخولها فمه والا كان تجنبها ، هي من العمى لم تعرف اتجاها ، يشهق من طولها لكنه يستمرئها.

ياخراب المدن. دب في جوفه حية ، الحية في داخلها قمر ، كمثل مشكاة فيها مصباح ، يستند الى جذع

مدهوشا مما جرى ، ثم يباغت الاثنين بان انقض ، يمسك قرني الدب ، لا- ليس للدب قرون ، هذه اذناه ، يتشبث بقوة ، تنبعث رائحة كريهة ، تفوح تلك الاتية من الابطين ، يطحر الدب مستغربا ركوبه وهو الاملس دائما ، يعرف بطشه جيدا ، لذا عدها معركة حياة وما دونها الموت ،

ان قاوم اكثر سيلوي الرقبة القصيرة ، كما فعلها مع الدب الصغير ، يضرب قدميه بالارض فينهض الدب كأنه تلة ، كان يمتطيه والاخر بدا السير.

- الى اين؟- ثلمة القرص بجوفك-

يصير الجري عدوا ، يلف ذراعيه حول العنق ، يتصوره سيطوف الشوارع ، يهرع الاطفال خائفين ، يخرب البيوت ، قرية اثر قرية يجتاز ، المدن تهرب ، راكضة عنه ، دب يلاحق مدينة ، يبلغها ساحقا الحشائش.

لن يقوى اكثر ، احال كل طريقه خرابا وانقاضا ، ترفس اطرافه في الهواء معلقة ، كان قد صدته صخرة في عرض الطريق منتصبة ،

نزل عنه ، في جوف الدب افعى ، الافعى كأنبوب مهشم ، في داخلها قمر ، القمر كأنه كوكب دري.

٥ـ سفر

إسمه سلام ابو الخير ، لست غريبة عنه ، انا لا اقتحم عالمه عنوة ، ارتبطت به منذ ان دلق اللهيب بين افخاذي ، في الايام الاولى الحرقة تتصاعد بمجرد رؤيته ، ثم نمت. سكن معي ليالي الشتاء ، تدفأ الفراش البارد ، احسه ينام الى الجنب ، احتضنه او امطره قبلا. وعندما تسري الرعشة اضغط ساقي فيهطل المطر ، كالحلم يلتصق بالشرشف ، فأداريه صباحا كي لا تراه الأم.

لحظات قدومه اتعرى من ثقل الملابس ، فابدو شفافة ، ثوب تنط حلمة الثدي منه ، يغريني شاربه فأدنو ، يتلامس النهد مع الشعيرات فيفز مستيقظا وعندها اود الصراخ. نار تحرق الجسد ، كل شيء يحترق عدا الرعشة ، تطفر من حيث لا احتسب.

مـرات اتحـول رمـادا ، منـسحقة تحـت الغطـاء اياما متواصـلة ، علـه يـأتي. علـه يـبرق خـبرا ، او اشـارة حتـى يـصير الانكـسار في العيـنين فرحـا. طفلـة في الـسواقي تركض ، صبية تقفز بين الاشجار.

قـرب الجـدول انتظـر ، الـساعة سـأراه ، مـن هـذه الجهـة سـيقدم راكبـا دابتـه ، تطـول سـاعات الانتظـار ، خائبـة ومنكسرة أعود ، أعلل النفس ان غدا قريب.

لم امـل الانتظار مـا دام قـد بـاغتني مـرة وانـا في اشـد حـالات الانـدحار ، كنـت اجرجـر قـدمي وقـد كلتـا مـن الوقـوف عنـد حافـة الجـدول صـابرة ، أفأجـأ بـه يجلـس في باحـة الـدار ، يـدخن "لـف" مع ابـي ، كـثيرا مـا حـدث هذا ، اذ يقدم من طرق غير متوقعـة وانـا احـسب نفـسي عارفة مسالكه ،

اهم مسرعة نحو الفتى الذي يلسعني الشوق اليـه ، بيـد اني اجفل خجلة من وجود الأم ، التي تنسحب الى المطبخ لاعداد وجبة للضيف ، حينمـا يبـصرني الاب مقدمـة يـدي للمصافحة يجعر:

- خذيه بالحضن ، اطفئي شوقك.

ارتعـب مـن جـرأة ابـي ، لكـن والله حتـى الحـضن لا

يكفي ، اذ اشعر لحظتها ان كل الشرايين تطبل زمورا لمقدمه.

لم يعد غريبا منذ اعتاد الجيران على حضوره المتكرر ، ولو بين حين واخر ، سنوات متلاحقة يظهر فجأة بهدوء ، كأنه لم يغب حينا من الدهر ، ودائما ما يلاطفني لما اعاتبه "الامس كان هنا واليوم يرحل" ، بيد انه يظل اياما ، قد تقصر او تطول فذاك ما يتطلبه مشواره.

صوته كالهمس ينساب كل مرة يباغتنا فيها:

- مساء الخير ، انا ابن "ابو الخير".

هي نغمة محببة الي جدا وافرح بعدم استعمالها مع الاخرين ، يخصني بصوت شذري دون العالمين اجمع ،

في البدء كنت اخاف طلته ، يتراءى كعفريت يخرج من بين الخرائب ، يشرئب عنقه ما فوق النافذة وانا يسجي الليل علي ظلامه ، اجفل من البوز الذي كنت اشبهه بالشيطان الرجيم ، ثم عدلت لاحقا ان وصفته بالشيطان القصير.

عيناه قانصتان كالنسر ، لا تفوته شاردة في اثناء حديثه ، وخافتتان ان انصت ، كأن الكلام يحرك حواسه ويحفزها باتجاه الوثوب ، يسهب مطولا واصفا بحديثه كل

ما يحيط الموضوع ، مثل من يقرا في كتاب ، لا تسقط منه كلمة ولا يتراخى عن السرد ، حتى اشعره غائبا عما يجلس بجانبه ،

ان صمت فتلك مصيبة كبرى ، تطبق شفتاه ولا تنفرجان ابدا ولو بحمحمة ، تتوقف عيناه عن الالتقاط ، كأن اصابهما النعاس فخمدتما ، اذناه كالرادار تبدآن بالالتقاط والتنبه ، والوجه لوحة صامتة لا تنم عن شيء ،

كنت اجن من جلسته ، احاول بشتى السبل اثارة انتباهه دون جدوى ، حتى يئست من اكتراث هذا المخلوق بي ، يأخذني الحنق فتصطك اسناني اشمئزازا ، اقرف فأنهض بأي حجة ، اتمتم مع نفسي: ما بي؟ لست قبيحة.. لا ابغي اي شيء ، فقط ان يشعر بوجودي ، يعيرني بعض الاهتمام ، قليلا من الكلمات يوجهها نحوي .. مقرف.. اللعنة عليه وعلى البغال التي ربطته بصداقة أبي.. ،

ادخل الغرف ، اتجول حولهم ، خارج البيت اطلق الدموع ، وفي كل مرة يغادرنا اتجاذب اطراف الحديث مع الاهل ، لا احد يشبع فضولي حول مغزى صمته وعدم الانتباه لي ، عصبية انهض شاعرة بالاحباط ، هل حقا لا

يعرف مقدار حنقي عليه؟

ان اضع حدا لما يحدث قرار عزمت عليه ان جاء ثانية وليفرط ابي من الغضب ، عندها لن يجرؤ للمجيء ثانية ،

على نافذة غرفتي ، ظلام وسكون مرعبان يخيمان في الوادي وضوء قنديل الغرفة خافت ، طرق خفيف ، مرة يتواصل ومرة يسكت. ظننت ان الريح تضرب الزجاج ، لكني تبينت ظلا ، بالكاد ظل راس يلوح ، توقعت ان ثمة امرئا ينتظر انفراج النافذة ، ترى من يكون؟

دون ان اهلع دنوت ، اذ تملكتني بتلك اللحظة برودة عجيبة ، شرعتها فأطلت ابتسامة عريضة ، أتبين صوتا يرافقها ، لكن لا افقه ما يقال:

- مساء الخير.

ثم نط ، بقفزة واحدة وجدت رجلا قصيرا في غرفتي.

- اسف ، الوقت متاخر.

لم يرض ان اوقظ ابي ، تلك اللحظة استطال ، رايته عملاقا وانا طفلة امامه ، هلعة اطالعه ، أمن المعقول هذا؟ رمى الحقيبة قرب مسند السرير ، خلع الجاكيت ، اخاف.. لا.. افرح ، مبهورة ، منكمشة ، تناقض يشتت عقلي ، بهدوء قال:

- سانام الليلة عندك ، في الصباح سنرى المختار.

اذن هو يعلم ان للمختار بنتا ، يعرفها ولا يخطئها ، جاء الى نافذتها ونام ليلة في سريرها.

تفصل بينهما مسافة كافية لان تدرك ابعاد خجلها. قبل ان يغط في عمق النوم قال كلمة ، لا ادري ان سمعني بعدها ام لا ، لقد اطلقت المارد من روحي ، كل الهواجس التي كانت تفجرت كسيل ، كنت يقظة طوال الليل ، اكثر من مرة تمتد يده تحتضنني ، وقد تمد لتقبض على النهد ، يرتعش جسدي وأهاب ايقاظه ، صحا مرة واحدة فأبصرني يقظة ، كالنائم في حلم قال:

- لست غبيا ، اشعر بدفئك.

جملته صارت زادا لبقية العمر.

للبحث عنه عقدت العزم ، انقطع مجيئه منذ فترة ، نتف من اخبار شتى يتناقلها الناس ، المختار ساعة المغرب يخبرنا انه جرح في المدينة ، باغته رجل في الظلمة فطعنه بخنجر ، الأم تقاطعه "سمعنا بهذا من قبل وايضا شفي من جرحه". بعض الفتية ممن يرتادون المدينة دائما يخبروننا: "شاهدناه يتجول في الشوارع" ، اخرون ينفون بالمطلق كل ما يشاع ، ويعدونها اكاذيب: "لا احد يعرف

شيئا ، لقد اختفى تماما".

مرة زارنا مهرب ، كان قد قطع ثلاثة حدود وعبر جبالا شاهقة: "صدقوني ، رايت ما لا يصدق ، بأي جبل تمر ترى مقاتلين رابضين عند القمم ، كأنهم دود يملأ الاعالي" ثم يردف بعد ان اطمأن لمرور معلومته: "سيخربون تجارتنا".

انا اعتقدت توهمه في الرؤية ، فسلام اخبرني مرة ان عدد المقاتلين غير كاف ، واذا انقصنا من يدلف المدينة فان ما يقوله هذا المهرب هراء ـ "غير حقيقي" قلت للوالد الذي كان ينصت بخشوع للقيل والقال الدائر بين القرى ، لكن ابي يصر على ان الحكاية بدات تكبر والاخبار المتواترة تشيع صحة وقائعها ،

بعض معارفنا الذين يجوبون المناطق القريبة من السلسة الشرقية اكدوا حدوث شيء كهذا ،

الحكاية تحولت بفعل الايام الى موضوع يتهامس الناس به ، حقا ثمة فرحة تغمر القلوب بحدوث معجزة ، اعتبروها بشرى للتخلص من الوضع الماساوي الذي يربض فوق الصدور ،

انا لم افرح ، كنت قلقة عليه ، لا ينقطع طويلا عنا ، ظل الوالد في بحث دائم عما يثلج فؤاده بخبر يقين ، لم

يك يروي لهفتي رغم سعيه الدؤوب ، طلبت مرة منه ، الأم شجعتني. حالما اقول كلمة تكمل عني الباقي ، غضب ابي وزعق: "حسنا ، انا مثلكما ، اريد اليقين ، سارسل شخصا".

اذن علينا الانتظار اياما وليالي

طوالا كيما يذهب الى السليمانية ويتحرى الاخبار ،

عاد خائبا ، لم يستطع الحصول على نبأ ، لكنه اضاف: "المدينة تغلي كمرجل ، وربما سيحدث شيء في أثناء الاعياد" ،

لست مستعدة للصبر اكثر من هذا ، فقررت امرا ، لا بد من معرفة حقيقة ما آل اليه هذا القصير ، الذي ملأ الدنيا شغبا ، الوالدة طرحت سؤالها اليومي المعتاد عندما دخل المختار وهم بالجلوس ، لكنه اصابه المس وكأن عقربا داس:

- الله اكبر ، دعيني استريح اولا.

الأم تدير وجهها خجلا ، انا ازحف اليه:

- كيف حالك ابي؟

اكيد شعر بالعقرب تحته ، فردة فعله كانت عنيفة ، حتى لم يع ماذا فعل ، اذ انه بالمنتصف من خلع سرواله ،

هيىء له انه كان يريد ارتداءه ، اربكنا معه ، لكن ضحكة امي ازاحت التوتر الذي كنا فيه ، ولن تدنو لحظة اخرى مثل اغنتام هذه ، فرمينا القنبلة معا باتجاهه ، كنا نتهيأ للهرب ، امي ناحية المطبخ وانا باتجاه الحوش ان ترامت ثورته علينا احذية متطايرة ،

لم يحدث ابدا ان راينا المختار منشرح الصدر لفكرة من اول وهلة ، امي صاحت:

- الله اكبر ، ستحل القيامة ،
- أترغبين بالسفر؟

ارقص ، ماذا؟ اطير ، ماذا؟ لا يكفي لاعبر عن سعادتي غير احتضان المختار ولثمه قبلا ، شعر بنشوة اخذته حالا الى غفوة ، كان الوقت مساء وحتى الصباح يكفي ان ألملم حاجاتي وأتهيأ للرحلة.

صرة من ثوبين وقطع داخلية وسروال يحمل أثر اشتعال اللهيب ، ثمة ثقب فيه يؤشر الى ذاك الذي انتصب وحرقني بناره.

ذكرى علقت بالذهن ، اشعر بالندم لعدم اتمامها ، لكني دائما اقول ان اللهيب ما زال يتوهج ، يخدرني ويجعلني ساهية ، لقد زرع شروده بي ، وعرفت يومها اي

قيمة ان تحتفظ بنار تدفئ الضلوع ساعة الوحشة.

محوت من خاطري كل الارهاصات التي راودتني ايام ما كنت احنق عليه ، ثمة امانة برقبته ان يوفيها ، ان يطفىء النار او يؤججها ،

لا احب منتصف الطريق ، انا ارض خصبة لم تزرع بعد ، هل يدري مدى الصعوبة التي خلفها لي؟

حقا نحن مضطهدون ما دام مرتدو الزيتوني ينهبون قوتنا ، لكن لا يعفيه من احراقي بحضنه ، يردد دائما: "ان تتخلى عن انسانيتك ان تبيح النهب".

ما دمت عرفت خيارك ايها القصير فلم لا تاخذ بيدي؟ كل ما قلته يحتاج الى اضافة ، لمسة من امرأة تعرف العشق وتعطر ثورتك باريجها ،

في داخلي نوازع شتى تغلي ، لكنها ترتطم بمقدار خوائي ، لا يكفي القهر لان اصل اليك ، ثمة نازع اخر ينمو في داخلي ، يشدني بقوة ، ان نرسم الدرب معا مثلا ، او ان افيض عليك لتنتشي ، انت الحارث لهذه الارض ، لن تؤتي ثمارها ان لم تشذب تربتها ، عندها ستظهر لماعة كالذهب ،

قادمة من اقصى قرية لاجدك ، البندقية تحت الرداء تختبئ ، لم اسقطها وانا اقطع السلاسل ، لن اعود خائبة ،

لا بد ان اجدك ، انت المرتجى في زمن الخواء ، حتى لو نبشت ارض المدينة زقاقا تلو الاخر ،

المختار اوصاني "حالما تصلين ، الى الحداد مباشرة اذهبي" ، الأم تردف: "انه صاحبه ويعرف خباياه".

لا يهم ان كنت لا اعرف الاسرار ، لكن لا بد ان يدرك اني البئر الذي يأتمن ـ "انت المرفأ الذي احن اليه" ، قالها مرة وعلقت بي ووظبت نفسي لأن اكون مرساه ، بل مرة شبهني: "كالمطر الذي يطهرني فأورق من جديد" ، بعد كل هذا ولا اعرف اين اجده ،

الوالد يصر: "الحداد سيدلك" ، الوالدة تضيف: "ربما يدلك على البوابة" ، الفتى الذي عاد خائبا اخبرني: "من الصعب معرفة شيء محدد ، لكن املي ان تجدي بعض اصحابه ، هم كثر. سترين ذلك ، كل شاب يعرف السر لكن لا يبوح به ، مدينة كالطلسم ، يعدون خطوات الغريب ، من اين وفد وأين يقضي وقته وبمن يلتقي ، اواه وجع مخ"

ليست المرة الاولى التي ازورها ، اذ ترددت مرات عدة في اوقات متباعدة ، لن تضيعني السليمانية قط ، حدثت الوالد بهواجسي ، لكنه غضب: "كيف تكونين بنت المختار وتضيعين". له العذر ، فهو يعد نفسه ممن ساهم في

اندلاع الثورة. كان واثقا ان اسمه سيشق الدرب لي ، كالعصا السحرية التي فلقت البحر ،

انتشي ، بعدما ذهبت الام تعد العشاء الاخير ، لقد اسر لي عدة اسماء للاستعانة وقت الضرورة ، انا ايضا لا تخلو جعبتي من سهام ، اتذكر جيدا احاديثه ووصفه المسهب عن الاماكن التي يرتادها ،

- اه ، اين انت؟

الى مدينة نائية الحنين يحملني ، الوجع في العروق يتخثر ، اجاهد المشقة كيما اصل ، بدات المسافة تقصر ، قطعت شوطا طويلا ، اهبط من شاحنة لاخرى ، سرت مسافات راجلة.

بعدما خرجت من القرية صباحا ، الوالدة تلقي تعليماتها الاخيرة ، سلسلة من النصائح ، **"لا تضيعي نقودك. ان سرقت..."**. مثل كيس تبغه اعلقها بين النهدين ، خيط ومحفظة ينامان بجوار رمانتين لم يفدعا بعد ، حرام ان يظلا حبيسين.

هما ينابيع ماء زلال ، إن عطشت تعال ، ساطعمك الشهد ، ألقمك الحلمة اولا ، ان خدرت سيهطل المطر ، وجودك بقربي سيجعل لسني العشرين معنى.

تعال حل وثاقي ، كنت قريبا وانا بجوارك ،

تحنو حتى طالتك ، هل تذكر؟ مربوط الى البغل وتابى النزول ، كانت تتحرق للقائك ، لم تبخل ولم تمهل ولم تجعلها تدرك كنه ما طلبت ، لكن لبت ، بكل المحبة التي تكنها لبت ، رغم غرائبية الوضع تشهيت فعلا ان تفعلها ، وهي في داخلها تسال عن الكيفية ، مربوط الى بغل وتتشهى امرأة تقف بجوارك ، طلبت ان تحل وثاقك عن البغل لكنك ابيت ، "ان ذلك اجمل والبغل صاحبي ، لا استحي منه" ، وضعت الفتاة ذراعها مسندا ليرفعها اليك ،

لم تتخيل جنسا يمارس بهكذا وضع ، انت غرائبي وهي غضة لا تعرف ، "علمني ، كيف اصعد اليك". كنتما تتقاطعان مع الحيوان ، انت معلق من وسطك وهي تبذل جهدا لتصل ، وكان لا بد ان تتدخل ، ما زالت الفتاة لحد الان لا تعرف كيف جرت الممارسة ، كنت تتشهاها وتصرخ لوعة من حرقة اللقاء وهي الاخرى تتأوه تحتك وعيناها تائهتان في الافق ، الذي كان طرف وادي واشجارا تهتز مع صراخها.

تلك الممارسة الغرائبية صارت حكاية ، وطافت على القرى كلها ، هي سردتها لصاحبتها ، من فرط دهشتها بما

حصل لم تستحي ، قصت الحكاية كاملة ، ولان الاخرى احتارت ايضا بالكيفية التي وقعت بها ، راحت الحكاية تتناقل حتى غدت اسطورة وانت بطلها.

كل القرى التي وصلتها الاسطورة حملتني نساؤها السلام لك ، لم يصدقن ان من خلق ملحمة بهذا الجمال يطعنه ملثم ،

- اه ، اين انت؟

اتهيب لقاء الحداد ، يقولون: "دكانه في الطرف الاخر" ، تمتد شوارع المدينة باهتة ، الضجيج يأتي من الازقة ، يتحول الهمس بالمنعطفات الى همهمة وعيون شاخصة ، الشوارع مقفرة ، وحدي اسير ، تطالعني النظرات بشكل منكر ، بمحاذاة الرصيف الثاني يسير شاب بمعطف ثقيل ، يده اليمنى تقبض على شيء ، حين وصلت ابتسم مودعا ، فرحة لمرافقته ، مرحى ايها الشباب ، سارقص لكم ان وجدته خطوتان وبان الدكان وسخا.

- مساء الخير.

بذات النبرة خرجت التحية ، التفت الحداد مذعورا ، أدركت انه يطلب اعادتها ، جاءت ايضا بنفس الطريقة.

كمن عثر على بغيته ، قدم كرسيا. مسرعا جلب شايا ، لماذا تنصهر الخردة و"القوري" لا؟

اطالع محتويات المحل ، متناثرة. ربما في هذه الزاوية كان ينام ، أراه يفتح ذراعيه ، يقبلني مرحبا ، ثم مثل طفل صغير يضع راسه فوق الكتف ، يتشمم العرق المتساقط بين الخصلات ، دائما يقول: "هنا رائحة الارض". يسأل: "ما الذي أتى بك؟" أصرخ: "انت".

يجفل الحداد ، عذرا سيدي فالنار تحرق الضلوع ، اهيم خلف حلم ، كان عند باب دارنا.

- لا تجزعي ، سنجده.

تجوال ثلاثة أيام خلق دوامة ، طفت المدينة وقصباتها ، الحداد يقودني واسم ابي يشرع الابواب ، احد الرفاق قال: "ذهبنا به الى كهف للشفاء". آخر رآه في المدينة يطارد دبا. آخر يصر: "لم يك يطارده ، بل يركبه ، وملابسه ملطخة بالدم". فتاة قالت: "منذ أيام دعوته ليأكل سندويشا".

الحداد يسجل كل الاقوال ويعلق: "سأكتب سيرة حياته". المسؤول الذي استقبلنا في مقر الانصار لم يدل بشيء: "مثلكم اتمنى رؤيته" ، اصدقاؤه هنالك يقولون انه

حي ، شاهدوه في طرف الجبل ، كانوا يشيرون الى الطرف القصي من الافق ، صديق ثان أضاف: "كان يحفر الحجر ، يصنع مقاتلين رابضين عند القمم ،"

اذن ما رواه المهرب في قريتنا صحيح ، يضيف مقاتل ، صادفه منذ أيام ،: "حالما ابصرته صعدت ، كانت يداه ماهرتين ، تحيلان الصخر الصلد لاشكال جميلة ، مقاتل عنيد رابض فوق قمة ، كأنه راية".

بان لي الان ان خياره صار يقينا ، لقد اكتسح بثورته حتى الصخر ، ولم يعد ثمة مندوحة من القبول بتسربه كالهواء من الاصابع ، صنع اسطورته الخاصة في قريتنا وها هو يصنع اخرى لاصدقائه ،

في الليل يراه الناس في المدينة ، يتجول كسائح ، يطالع الابنية ، يحك تعرجاتها ،

- هو مثلنا لا يختلف ، تصوري مدى تعلق الناس به ، لقد صار حلما لهم ،

الحداد الى الجوار يمشي ويحادثني في طريق العودة:

- إنزرع في العقول ، يعلقون الامال الكبيرة عليه ، يكمل بقهر يتشرب الكلمات:

- ليس ساحرا هو ، أشتاق اليه وابكي فراقه.

ممكن أن ألخص ما مر بي منذ دخلت المدينة ، لن أراه ، هذه النتيجة الحتمية التي تتراءى امامي جلية هو صار في الكل ، الحداد يدعي ربوبيته ، الاصدقاء يتمثلون احاديثه ، البنات يأخذنه الى مشاوير الفرجة ،

من الصعب علي تجسيد الحلم بشخص ، كون هذا الشخص خاصتي ،

- أين تذهبين الان؟

الحداد بقهر يطرح السؤال وكأن ثمة املا في الامساك به ، هو يأمل ان أحثه بهذا الاتجاه ، لكنني في منتصف الطريق اقف:

- لم يعد مجديا ، سأعود صباحا الى القرية

انحدرنا ، الازقة تهبط الى قعر المدينة ، الاسواق ما زالت تفتح ابوابها ، اسراب من الشباب يتجهون الى الوسط ، بعض البيوت ترفع رايات ، تذكرت راياته الخضراء والصفراء عند الجرف ، لطالما حدثني عن الواقعة تلك ،

- ماذا يحدث؟

- كل سنة وانت طيبة

ياللرب ، لقد نسيت ، أعياد الربيع تحل اليوم ، قبلني الحداد ، كان يتشمم في الرائحة الغائبة لشخص عزيز ،

الرايات تزداد ، هابطة الى القعر ، جمهور يزحف ، رددت فتاة نشيدا معروفا ، خافت صوتها ثم علا تدريجيا ، النشيد عم فوق الجميع ، تفتح الازقة ابوابها ، يخرج الناس الى الشوارع ، سيل بشري نحو المركز يسير ،

- ها ، ما الذي حصل؟

شاب يلهث ويعدو ، لم يجب اولا ، ثم التقط انفاسه من اللهاث:

- اطلقوا النار على الطلبة ، سقطت فتاة ميتة.

ركض الناس ، المدينة تصير مظاهرة ، يمسك الحداد يدي ، يدي الاخرى على الزناد ، ايها القصير ما فعلت بي؟ كل الفتية يشبهونك ، من يحتضن من؟

٦ـ المطاف

الحزن ينخر العظام ، لا يقوى على النهوض ، يرسخ في القعر وساعة الوحشة يطفو ، كموجة تجتاح كيانه فيرتعش ، كشيخ جاوز السن المقرر يسعل ، تأتي خافتة وتطفئها ذرات الرمال التي تنثرها الريح ،

يقاوم الالم ويكابر ، كان يعد نفسه لأيام اخرى قد تقدم حينما تهب الرياح من مدينته في واديها ساكنة ، كالنسيم الذي يحلم ان يشفيه من وجع الخاصرة

كان يحسب النجوم تقف في مداراتها ان بلغ الحزن مداه ، لكنه ظل يراقب بعضا مما تحمله له الريح ذات يوم

هب انه مات ، لم ينعيه شخص ، هب انه عاش ، السحاب يسير وراء موكب عرس ، لم ينغرس في رمل ويعبر الوديان

سيظل منفردا ، لا تضمه لغة ، ولا تحفظ الذاكرة له تاريخ ميلاد ، كالذي نسيته امه وهي تركض بين الفسحة والرايات.

إرتصف الجدران والقمم ، حلمه قاده ، حيث أبتدأ الأمر اصلا.

طريق العودة الى القرية ، التي هي آخر القرى والقريبة من الحدود ، صار شاقا ، فقررت ان تطرب على بعض من أغانيه:

"طلقة هذه الروح

كم دفعنا الى حجر ، كي نطوف دهرا به.

ايها الحجر النيزك ، الحجر الابيض ، الحجر الملون: اي زمان قطعنا معا؟

اي ارض حللنا؟"

الكويت - ١٩٨٦

للمؤلف:

- **تل حرمل، قصص قصيرة**
- **رواية تعالى وجع مالك ٢٠١٢**
- **رواية جدد موته مرتين ٢٠١٢**



تموز للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق/جوال : 00963-944628570
Email: akramaleshi@gmail.com